إبراهيم مضواح الألمعي

الأعمال القصصية

الانتشار العربي

الأعمال القصصية

1996م - 2008م

الأعمال القصصية

1996م ـ 2008م

إبراهيم مضواح الألمعي

قطف الأشواك	2001م
على رصيف الحياة	2003م
التابوت	2008م
أوشال حزينة	2008م
حديث الرخام	2008م

المحتويات

قطف الأشواك

في مكتب المنتظرين 11
الغرفة 15
البيت القديم 19
عندما يخبو الأمل 23
على الطريق السريع 29
الإقطاعي 37
تحت الخط 39
لقاء 43
دمعة أب 45
الكرسي الدوار 47
الموعد لم يحن بعد 51
الرجم بالكلمات 53
ذات المنديل الأصفر 57
الأستاذ محجوب 59
أمام الباب الزجاجي 65

على رصيف الحياة

غربة أديب 75

ثقافة الشارع 79
على رصيف الحياة 83
اللوحة 85
انسحاب 87
مريم 89
على عتبة بيت مهجور 91
وجوه بلا ملامح 93
الضحية 97
شيخوخة قلب 101
هو.. والرحيل 103
آلاء 105
الحديد والنار والأسمنت 109
العافية 113
وساوس 115

قصص التابوت

مخاوف 121
حفلة وداع 123
عِيدُ المدينة 125
المستقبلون 129
على النيل 131
الأرغفة 133
متسولان 135
في القطار 137
انكسار لحظات الهدوء 139

مجرد سؤال 141
سيرة صياد 143
تلويحة الصباح 149
صورةُ الشهيد 153
ليلة العيد 157
سلام لله 161
آنية الزهور 163
ليلة 167
المقابلة 169
البهجة الحزينة 171
التابوت 175
الوثيقة 177
زائر 179
ميلاد 181

أوشال حزينة

الوداع الأخير 187
هزيمة 191
الغبار 195
العودة إلى لا مكان 203
غناء 207
المستنقع 211
فقد 215
خيانة وردة 219
حقد 223

نجمتي الأثيرة 229

حديث الرخام

اليومُ الذي لم يرحل 235
حديثُ الرّخَام 237
عادة 239
الميزان 241
الشمس تخلف موعدها 243
دينا 245
التوأمان 247
دهشة 251
شجرة الكينا 253
سأضحك 257
السلَّة 259
الثاني من أكتوبر 261
الشفاء من الحب 265
السقف 267
مناورة 271
رحلة شعرية 273
بائع الخضار 277
العائد 281
المريض رقم (7) 283
السمكة الحائرة 287
ابتلاع 291

قطف الأشواك

دار المنارة للنشر والتوزيع ـ جدة ـ 2001م

في مكتب المنتظرين(*)

جاءت تحمل بين جوانحها عواطفَ وأشجانًا وبشاراتٍ عبر المسافات، تحملها لمحبها المغترب، الذي طالت ساعات انتظاره.

تعرضت في طريقها لكثير من المضايقات وهي تمر بين يدي رجال غرباء، لم تكن تحسن الحديث معهم، وإنما يقرؤون في هيئتها ما يدلُّ على المكان الذي تسعى إليه.

لم تبُح لموظفي المطارات بالكثير من مكنون صدرها بل كانت تجلس صامتة في طوابير الانتظار، حتى إذا سُئلتْ اكتفت بإشارات تدل على مقصدها.

خافتْ من فضول أحد موظفي الجمارك وهو يتلمَّس جوانبها بنظرات مريبة، خشيت أن يخلع حجابها، همَّتْ بالاحتجاج ولكنها آثرت الصمت، تخلَّى عن فضوله فجأة، وانصرف إلى أخرى أكثر منها امتلاءً.

فَرِحَتْ بسلامتها وهي تحدِّث نفسها عن الحبيب الذي

(*) 2000م.

ينتظرها، ليكون الوحيد الذي تبوح له بخواطرها وتنقل له أخبار من أودعوها عواطفهم وأشواقهم بعد طول الغياب؛ فالمؤسسة التي يعمل فيها لا تمنحه إجازة إلا كل عامين.

يتوقَّع وصولها إلى (مكتب المنتظرين) فيستأذن لاستقبالها كل يوم ويعود وقد اتشح بالخيبة، بعد أن يسمع تلك الجملة التي أصبح يتوجَّس منها، قبل أن يسمعها من موظف المكتب الذي أصبح يعرفه من كثرة تردده إلى المكتب فيبادره بقوله:

ـ لم تصل بعد يا شهاب الدين.

يكرر السؤال بلغته الركيكة، فيجيبه الموظف:

ـ يا أخي فارقنا إذا وصلت أرسلناها إلى المؤسسة.

تكرَّرَ استئذانه من مديرالمؤسسة الخمسيني الذي يرى القادمين من الشرق آلات سخرة بلا عواطف أو هموم.

أطلَّ برأسه إلى مكتب المدير على استحياء. تمتم بكلام غير مفهوم، مشيرًا بيده إلى (مكتب المنتظرين) لم يمنحه فرصة، صرخ في وجهه: ممنوع الخروج قبل نهاية الدوام. مفهوم؟! لم يُجْدِه الرجاء ولا الدموع التي اغرورقت بها عيناه.

في محطتها الأخيرة توقعت أن تجده في انتظارها، رأت الكثير من العمال؛ لكنه لم يكن في صف المنتظرين، لغتها ركيكة لم يفهمها الموظف، قاسها بنظراته، مدَّ شفتيه

غير مكترث ثم انصرف إلى معالجة بعض شؤونه متجاهلًا انتظارها.

في اليوم التالي قرر (شهاب الدين) أن يذهب ليسأل عنها دون استئذان. أطلَّ ـ كعادته ـ من النافذة فبادره الموظف بقوله: لم تصل.

لم يخطر ببالها أنها المقصودة، غير أنها تفاءلت أن المنتظرين يسألون عن القادمين.

عاد (شهاب الدين) إلى المؤسسة لاهثًا وهو ينظر إلى ساعته هل يمكن أن يعلم أحدٌ بالدقائق التي اختلسها من وقت الدوام.؟!

ـ أين كنت يا شهاب؟! فاجأه صاحب المؤسسة.

ـ أشار بيده نحو (مكتب المنتظرين).

ـ لا عمل لك عندي بعد اليوم، قالها ثم انصرف عنه بمكالمة هاتفية، انتظر (شهاب الدين) انتهاء المكالمة وبينما هو في حيرته بين اليأس والرجاء أشار المدير جهة باب الخروج. خرج (شهاب الدين) لم يكن له وجهة محدَّدة، لكنه وجد خطوته تأخذه إلى (مكتب المنتظرين) دخل هذه المرة من الباب، نهره الموظف: ألم أقل إنها لم تأت بعد؟! عد بعد ساعة؛ ربما تأتي ضمن بريد اليوم الذي سيصل في الحادية عشرة، أشار شهاب برأسه موافقًا، فلم يعد هناك ما يدعو للاستعجال.

انصرف الموظف إلى أوراقه بينما تجاذبت (شهاب الدين) هواجس الخوف من المستقبل بلا عمل، والشوق إلى الغالية المنتظرة.

فجأة صرخ وهو ينقض على رسالة سقطت بجوار الطاولة، حدَّق إليها، احتضنها، فزع الموظف وانكمش على كرسيه، وهو يرى (شهاب الدين) يرقص ويُقبِّل الرسالة ويشمها، ويقول: هي هي. مكتوب (Shabuddin)، أخذها وخرج من المكتب في ضحكة هستيرية.

الغرفة(*)

في عشية يوم من أيام سنة 1986م، جلس الأَخَوان يحتسيان الشاي إلى جوار الغرفة التي استأجرها لهما أبوهما منذ أسابيع؛ كانت أيامًا ثقيلة، فقدا خلالها الشهية للطعام والكلام، وفقدا متعة المنافسة الدائمة بينهما في كل شيء، تبدلت حالهما منذ سكنا هذه الغرفة، الصمت يخيم عليهما، إلا عندما يصبح الحديث ضرورة؛ سؤالًا عن شيء، أو طلبًا لأمر مهم. كان كل منهما آيلًا للبكاء، ولكنه يتماسك حتى لا يكون أول الباكيين.

مرهقةٌ رتابة الحياة الساكنة، بعد حياة الصخب والدأب التي كانا يعيشانها في بيت أسرتهما الكبير.

يستيقظان في الصباح على مزامير السيارات وحصحصة دواليبها، التي تدور حول الغرفة فتثير غبارًا يقتحم الغرفة عبر نوافذها المخلَّعة، فيكسو كل أشيائهما ثوبًا ترابيًا مزعجًا، ومع ذلك يشعران بالامتنان لها فهي تؤدي دور ساعة التنبيه.

(*) 1999م.

يتجهان إلى المدرسة بشيء من الانزواء والترقب، يعودان إلى الغرفة ظهرًا، وفي طريقهما يمران على عامل المطعم المجاور للمدرسة، الذي أصبح يعرف الطلب (نصف دجاجة مع الأرُزّ) ويسجل القيمة في دفتر الحساب.

يتغديان في صمت، ثم يتلهيان بأي شيء، فالنوم في النهار يطيل انتظاره ليلًا، يصليان العصر ثم يُعِدُّ أحدهما الشاي، ويجلسان في ظل شجرة الكينا، وتبدأ ظلال الكآبة الثقيلة تخيم عليهما، وهما يرقبان الشمس المائلة نحو الجبل ـ الذي ألِفا كلَّ موضع فيه ـ لم يعد للشاي مذاق محدد، يفكر كلٌّ منهما قليلًا قبل أن يتكلم، وهو يشعر بغصة العبرة في حلقه، ويتمنى لو يرخي العنان لدموعه، فيغسل بها الحزن المكتوم في صدره، كل واحد يدرك ما يعتمل في صدر الآخر من لوعة فراق الأسرة الكبيرة، ومع ذلك لم يرغب أحدهما في البوح بما يختزنه من كآبة، يستحضران وصية والدهما التي كررها مرارًا، وهو يودعهما: «لقد أصبحتما رجلين ودخلتما الثانوية؛ واستأجرتُ لكما غرفة بجوار المدرسة، الله الله في دروسكما».

كان النوم أمنية ليلية صعبة المنال، يطرده عن عيونهما محاولة استجلابه، وسط الوساوس الليلية التي تنتابهما في هدأة الليل الذي يحسبان حسابه من النهار فلا ينامان في الظهيرة، برغم حاجتهما إلى النوم، وفي المساء يحاولان

تزجية الوقت بإعداد العشاء الذي لا يحتاج إلا إلى دقائق. قليل من الجبن والخبز والشاي، ثم يشتغلان بحل الواجبات، ولكن كل ذلك يتم بسرعة ويبقى وقت طويل، ولا بدَّ من إطفاء (الإتريك) توفيرًا للغاز، ثم يستلقيان على فراشيهما؛ يلفهما الظلام الدامس، يستمعان للراديو ذي الموجة الواحدة، وبين الحين والآخر يحدث أحدهما حركة ليطمئن أن الآخر ما يزال مستيقظًا، ثم يعود السكون ووحشة الظلام إلى الغرفة.

تمر الليالي بصعوبة بالغة، وعندما يولد الفجر يشعر كل واحد منهما أنه انشقَّ عنه قبره ليعود إلى الحياة من جديد، كانت الليالي لا تطاق، أدرك الأخ الأكبر استحالة الاستمرار على هذه الحال، فهذا الجو الكئيب سيحول بينهما وبين النجاح.

كانت المشكلة الحقيقية بالنسبة إليهما هي فراق أمهما الحبيبة، فيمكن سلوان أي شيء إلا أمهما التي ودعتهما بدموع حبيسة في المحاجر، يعلمان أنها سترخي لها العنان عما قليل.

كان الأخ الأصغر يحاول بث أخيه ما يجد واستدراجه إلى الكلام حين قال: لقد رأيت أمي في المنام البارحة؛ رأيتها... لم يكمل فقد قاطعه أخوه حين انفجر في نوبة بكاء كانت المخرج الوحيد من أزمة نفسية حادة، بادله الأخ الأصغر البكاء، واستمرا يبكيان كطفلين صغيرين،

جفَّت الدموع وانقطع النحيب، وإذا كلٌّ واحد يحاول استعادة ما انخدش من كبريائه بابتسامة كاذبة.

وقبل أن يتكلما رأيا سيارةً تتجه نحو الغرفة، مسحا الدموع، واقتربت السيارة، إنه زميلهما (أحمد) يوقف سيارته الجديدة إلى جوار الغرفة، فرحا بمجيئه؛ فسيخرجهما من كآبتهما، ويكفيهما مؤونة تبرير الدموع، فهو أول زائر لهما في هذه الغرفة، ثم إنه زميلهما الوحيد في المدرسة الذي يعرفانه من المرحلة المتوسطة؛ كل هذا كان دافعًا لاستقباله بحفاوة مبالغ فيها.

باركا له بالسيارة الجديدة، بغيرة ودهشة تختفي وراء الكلمات، قدَّما له الشاي، وكانا ينتظران معرفة سبب مجيئه في هذا الوقت، لم يسألاه، ولكنه أدرك ذلك فبادرهما بقوله: لقد اتفق والدكما مع أبي على أن نأتي إلى المدرسة من القرية كل يوم بسيارتي الجديدة، وبعثني إليكما لآخذكما، وتتركا الغرفة.

كانت المفاجأة أعظم من أن تُصدَّق، فرحا ثم انتابهما شعور بالخوف؛ أن يكون واحدًا من مقالب (أحمد) الكثيرة، حتى أقسم لهما إنَّه يقول الحقيقة، فجمعا أشياءهما في السيارة، وانطلق الأخوان باتجاه القرية تقلِّهما فرحةٌ افتقداها منذ زمن، فعجزا اليوم عن التعبير عنها إلا بإطلاق العنان لتخيل مراسم استقبالهما بزهوٍ نسيا معه الغرفة الكئيبة.

البيت القديم(*)

أعدَّ حقيبته التي تتسع لأشيائه المعتادة (كتاب، ملابس رياضية، راديو صغير، قميص نوم) جعلها بجوار المذكرات التي يحتاج إليها في محاضرات الغد، ألقى رأسه على وسادته وهو يفكر في محاضرات الغد الطويلة، التي ستحول بينه وبين الانطلاق مبكرًا إلى أسرته، مرَّت محاضرات الأربعاء كما توقعها؛ ثقيلةً قليلة الفائدة، فهو يقضيها في التخطيط ليومي الخميس والجمعة.

كان أول الخارجين بعد المحاضر ليركب سيارته الموجهة بعناية تجاه الطريق الموصل إلى قريته. انطلق مع الأفق، والفرحةُ تكاد تقلُّ سيارته، لم يكن يشعر بطول الطريق، فابتسامة أمه وهي تستقبله وتدعو له، حين يقبِّلُ يدها ورأسها المضمخ بالطيب، وفرحة أخوته، ونظرات أبيه، كلها مشاعر يفتقدها مدى الأسبوع لينعم بها اليوم.

شيءٌ آخر كان يؤجج شوقه إلى قريته؛ إنه شوقه إليها، فقد تعوَّد أن يزورها كل نهاية أسبوع بهدية ينتزع

(*) 1998م.

ثمنها من مصروفه الأسبوعي الذي لا يكاد يفي بضروراته، يشفع كل هدية يقدمها لها بكلمات الاعتذار التي حفظتها من كثرة تكرارها: هذا الذي استطعته الآن، عندما أنهي الجامعة وأصبح موظفًا، سأحضر لك كل ما تتمنين.

لم تفارقه صورتها وهو يحلق في جنبات الطريق الممتد بين قريته والمدينة التي يدرس فيها، الطريق الذي يجمع كل التضاريس؛ قمم ومنحدرات، سفوح والتواءات وأودية، ثم يعود إلى الصعود باتجاه قريته، التي علت بأبنائها إلى قمة الجبل.

ينتابه شعور بأن رئتيه تتسعان، كلما اقترب من قريته، أوَقَفَ سيارته اللاهثة، نظر إلى ساعته؛ إنها الثانية بعد الظهر، حمل حقيبته الرمادية، سار نحو المنزل في خطواتٍ طاووسية، فأهلُ القرية يطلُّونَ من النوافذ لمجرد سماع صوت سيارة تقتحم هدوء القرية، لا بُدَّ أنهم يقيسونه بنظراتهم، تعوَّد ألا يغادر سيارته حتى يلتفَّ أخوته حوله هاتفين فرحين، أما اليوم فلم يستقبلوه كعادتهم، لعلَّهم يتناولون الغداء، طرق الباب، لم يجبه أحد، دفع الباب، دخل، أجال نظره في جنبات البيت.

عقدَت الدهشةُ لسانه، وعقلت قدميه، فأوقفته أمام غرفة أبيه (البيت خالٍ حتى من الأثاث!!) أفاق من دهشته حين وخزته ذاكرته، عارضةً له صورة البيت الجديد الذي أنهى أبوه بناءه من أسبوع، لا بُدَّ أنهم انتقلوا إليه.

ولكن كيف يهجرون البيت الذي آوانا سنين طويلة، ويجردونه حتى من الأثاث الذي يستر جسده الطيني؟!

وقفت دموعه في المحاجر، تشمُّ رائحة الذكريات، وأنفاسه يضيق بها صدره، ولسانه يتحرك بتمتمات ينفثها بلا شعور؛ «في هذه الغرفة كان جدي ينام، وفيها مات، رحمك الله يا جدي، لو كنتَ حيًا ما أصبح بيتنا طللًا من الأطلال. هذه غرفتي أنا وأخوتي وأخواتي؛ فيها كنا نجلس، ونلعب، ونأكل وننام، كانت دنيانا، قضينا فيها ما أدركنا من بقايا الزمن الجميل. خلف هذا الجدار كنا نختبئ عندما يحين العقاب على ذنوبنا البريئة. هنا كنَّا نجلس نحملق باتجاه التلفزيون آسفين لأن عيوننا ليست باتساع شاشته. حول هذه الأثافي كُنَّا نلتفُّ في ليالي الشتاء الباردة، لنصطلي، وألسنة النار تطلُّ علينا من تحت القدر».

مرَّتْ به لحظات من السكون، ثم خرجَ يجرُّ قدميه تجاه البيت الجديد.

عندما يخبو الأمل(*)

يستعصي عليه النومُ، حتى يسد كل منافذ الضوء المنبعث من واجهات المحال التجارية، ومن أعمدة النور الواقفة في ثبات وكأنها شرطي في حالة انتباه يحرس الحي بأعين محدِّقة طوال الليل.

منذُ أيام بدَّل بالستائر أخرى سميكة، عندما اكتشف أنها تسمح بتسرب بعض الوميض الذي تطلقه لوحة دعائية تتوهَّج ثم تنطفئ في حركة مستمرة.

يقبع سريره في إحدى زوايا الغرفة، وإلى جواره السرير العريض الذي تخلى عن نصيبه فيه منذ عام، عندما رُزِقَ ابنته الوحيدة (أمل)، تفصل بين السريرين طاولة صغيرة، وضع عليها الراديو، الذي كان يمثل الوجبة الليلية المهمة قبل النوم، والذي طالما تذمرت منه زوجته بحجة أنَّه يزعج الصغيرة.

عندما انتصف الليل ترك مكتبه، اتجه إلى غرفة النوم، بعد أن تأكد من إطفاء جميع الأنوار في الشقة، كان الظلام

(*) 1999م.

دامسًا، ولكنه يسير وكأنه يرى بوضوح، فقد اعتاد السير في الظلام، تحسَّس سريره بيده ليتأكد أن كل شيء في مكانه، استلقى مادًا جسده النحيل، وفي حركة محفوظة وضع يده على مؤشر الراديو، وحرَّكه شمالًا ويمينًا، يبحث بين المحطات عن صوت (أم كلثوم) وقف به المؤشر ليسمع مذيعةً رخيمة الصوت تقول: «وختامًا إليكم أيها السادة المستمعون، أبرز عناوين النشرة: «مصادمات عنيفة في أنقرة بين الأكراد ورجال الشرطة التركية، مصرع العشرات في الصراع الدائر بين قبيلتي الهوتو والتوتسي الراوانديتين، تجدد المعارك للسيطرة على مواقع حدودية بين أثيوبيا وأريتيريا، مواجهات جديدة في جنوب السودان، مذبحة أخرى ينفذها الصرب ضد ألبان كوسوفا، بينما يهدد الحلف الأطلسي بالتدخل العسكري، وعشرات الآلاف من مسلمي كوسوفا يفرون تاركين قراهم إلى الدول المجاورة، مصرع ثلاثين مدنيًا في الجزائر، وتبادل الاتهامات بين الجيش والإسلاميين، حركة طالبان تنتزع مواقع جديدة من المعارضة، رفض العراق مجددًا الانصياع لقرارات الأمم المتحدة، ويستمر الحصار، تجدد الغارات الإسرائيلية على جنوب لبنان، مصرع شاب فلسطيني خلال تظاهرة احتجاج على الاستيطان في الضفة الغربية..».

مدَّ يده وأدار المؤشر بحنق وقد تملكه ضيقٌ خانق، نهض وهو يفرك عينيه باتجاه مقعد خشبي بجوار النافذة المطلة على الشارع، شعر أنَّه بحاجة إلى أن يتنفس هواءً

باردًا، حرّك الستارة بكلتا يديه في اتجاهين متعاكسين، فتح النافذة وأخذ نفسًا عميقًا، ثم آخر أعمق، أجال نظره في الشارع الساكن، مدَّ نظره نحو آخر الشارع حيثُ تتضاءل أعمدة النور، أعاد نظره تجاه المحال التجارية المصطفة على ناصية الشارع، كانت جميعها مغلقة إلا أن اللوحات التي تعلو أبوابها كانت مضاءة، وبالرغم من أنه يسكن هذه الشقة في الدور الثالث منذ عامين إلا أنه لم يحاول معرفة أسماء هذه المحال، كان يقصد المحل الذي يريد فيأخذ ما يريد دون الالتفات الى اسم المحل، حدَّق إلى إحدى اللوحات، هذه اللوحة المزعجة التي لا تكفُّ عن الوميض، سأطالب بإزالتها أو إيقافها عن الوميض من الغد، أخذ يقرأ اللوحات واحدةً واحدة: بوفيه السعادة، مكتبة الأخوَّة، بقالة الأمانة، مطعم الأصدقاء، صالون المستقبل، مشغل الأمل.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة، لقد انتزعوا هذه الصفات من صدورهم ليزينوا بها متاجرهم، إنهم أبرياء من هذه الصفات، أين هي من نفوس الذين يشعلون الحروب في كل مكان لأهدافٍ دنيئة؟ وأين هي من أصحاب المحال أنفسهم الذين يجيدون فنون الغش والكذب أكثر من إجادتهم فنون التجارة؟

بعد أن ارتفعت الستائر السميكة، تسلل الضوء إلى جوانب الغرفة، التفت وهو يردد: بوفيه السعادة، صالون

المستقبل. أي سعادة وأي مستقبل ينتظر البشرية؟! إنها تركض بأسرع ما لديها نحو النهاية.

بدأ يشعر بالضيق مرةً أخرى وهو ينظر إلى ابنته النائمة في حجر أمها، شعر أنَّه يتنفس بصعوبة، والدموع تتراقص في عينيه، ترى ماذا ينتظرك أيتها البريئة؟ ليتني تعقَّلْتُ قبل أن أزج بك في خضم هذه الحياة، ترى هل ستكبرين أم أن الموت سيأخذك مني؟ فأبقى بعدك أتجرع غصص الأسى، أم هل سأموت قبلك فتعيشين بعدي يتيمة مكسورة الجناح؟ ومن سيتولى رعايتك بعدي؟ أم أن الموتَ سيختطف أمَّك الحانية؟ فأحيا أنا وأنتِ يذكِّر كلانا الآخر بها، فنحيا حياة البؤساء، ترى ما لون الأيام القادمة؟ أجاب: قاتمة.. قاتمة.. قاتمة..

كان يلقي هذه التساؤلات وعيناه مصوبتان إلى وجه ابنته ذات العام الواحد، وهي تحرك شفتيها الدائريتين وكأنها تلثم ثدي أمها، في حلمٍ طفولي لذيذ، بدأ الدمع يأخذ طريقه على خديه وهو يتمتم، يا أيها المتفائلون الكاذبون الأغبياء، ماذا تنتظرون؟! سوى فراق من تحبون؟! أليسَ الغدُ وحشًا يتربص بنا؟! ولكني لن أعطيه الفرصة، سأحسم الأمر بيدي، سأحسم الأمر بيدي.

أفاقت زوجته على ضجيج السيارات والناس في الشارع، فإذا النافذة مفتوحة، والستائر مشرعة على غير العادة، التفتت إلى سريره فلم تجده، أطلَّت من النافذة،

فإذا سيارات الشرطة والإسعاف والجنود يملأون الشارع، يتحركون حول جسدٍ مسجى، ملتصقٍ بالرصيف، تركت المشهد لتبحث عنه في مكتبه، فلم تجده، لا بدَّ أنه نزل عندما سمع الحادث ليسعف المصاب، هكذا ظنَّتْ، جلست على مقعده، تناولت ورقات مصفوفة على مكتبه، قرأتها فإذا هي قصة عنوانها: (عندما يخبو الأمل).

على الطريق السريع(*)

كنتُ جالسًا في إحدى الاستراحات، أحتسي الشاي، وأقلِّب الجريدة، ريثما تهدأ الزوبعة الرملية التي سدَّت الأفق، وجعلت الرؤية تكاد تنعدم على الطريق الواصل بين مدينتي ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلَّم، كنتُ أرقب الزوبعة من خلف الزجاج، فأرى الرمل يتحرك كأسراب الجراد في كل اتجاه، ثم أعود إلى قراءة الجريدة، شرد ذهني وتبعه بصري إلى قلب الصحراء المرتمية، في أحضان السماء، أتخيل لفح هجيرها، بينما أنعم بالنسيم البارد المنبعث من جهاز التكييف، وأطلق نظري في الصحراء أمامي تلتهب رمالها من القيظ، وبينا أنا كذلك لمحتُ ذلك السواد القادم على مرمى البصر في الصحراء المحرقة، يبدو تارةً وتحجبه الرمال تارة أخرى، عَلِق بصري بهذا القادم الغريب، وهو يقترب، عندما دنا، أَبَنْتُهُ قليلًا، إنه رجل احدودب ظهره من مرور سنين على كتفيه، وخطَّت السنون على وجهه أخاديد فوق أخاديد، يرتدي شملةً خلقة، ويعصب رأسه بعمامة، وعلى كتفيه، عصًا أمسك طرفها

(*) 2000م.

بيده وقد ربط متاعه بطرفها الآخر، استمر يخطو بتثاقل حتى اصطدم بالزجاج، فتقهقر خطوات ثم عاد يحدق إلى الباب الزجاجي، ويتحسَّسه بيده، لم أحتمل رؤيته تسحقه الدهشة، فألقيتُ الجريدة وأسرعتُ نحو الباب، فتحت له وأخذت بيده حتى أجلسته معي إلى الطاولة، قدَّمْتُ له كوب ماء فشرب الأول، ثم ثنَّى وثلَّث، وأخذ يُحدِّق إلى الأشياء من حوله، ويرمق الناس في صمتٍ، مهيب، حاولتُ كسر حاجز الصمت بينه وبين الأشياء من حوله بالترحيب به، ثم سألته: أأنت غريب أيها الشيخ عن هذا البلد؟ فأجابني بسؤال: وأي بلدٍ هذا؟

- أنتَ على مشارف مدينة الرسول ﷺ.
- الحمد لله، لقد خرجتُ من الكوفة منذ زمن أريد الحج، وتهتُ في الصحراء، وظننتُ أني سأموت قبل أن أبلغ مكة والمدينة.
- إذًا أنت من الكوفة؟
- نعم. ولقد مضت عليَّ سنوات طويلة ما التقيت إنسانًا، ولا تحدثتُ مع أحد.
- قلت: وقد أعجبتني نبرة صوته المجلجل، وفصاحة لسانه، ومن أنتَ أيها الشيخ؟
- أنا عبد الملك بن قُريب.
- أنعم وأكرم، ولكني لم أسمع بهذا الاسم من قبل.

- لعلك سمعت بالأصمعي.
- الأصمعي. صاحب الروايات والقصص والأشعار، الذي يكاد لا يخلو من اسمه كتاب أدب؟
- أجل. أنا الأصمعي..

امتلكتني قشعريرة، هزت كل جزء في بدني، ثم ذكرت الله في نفسي، واستعذتُ به من الشيطان، وأنا أشعر أني أمام جان في صورة بشر؛ لمس الدهشة على وجهي، والرعشة في أناملي، والتأتأة في لساني، فقال: ما بك يا ولدي؟!

- الأصمعي مات منذ ألف ومئتي عام، ثم تَدَّعي أنَك الأصمعي!!
- وهل يموت رجل يكاد لا يخلو كتاب من ذكر اسمه حتى بعد ألف ومئتي سنة، كما تقول؟!
- كلا. ولكن الزمن تغير والناسُ لم يعودوا الناس الذين تعرفهم، فهل تُراكَ تستطيع العيش معهم اليوم؟!
- لقد تعلمتُ من الصحراء ـ يا ولدي ـ أن أعيش أقسى حياة.
- إذًا أهلًا بك في القرن العشرين يا أصمعي.
- لقد خرجتُ من الكوفة في مطلع القرن الميلادي التاسع، فما بالك تقفز بي إلى القرن العشرين؟!

- ألم أقل لك إنه أمرٌ غريب؟!
- أجل، ولكنني أعشق كل غريب، لعلي أروي قصتي هذه للمأمون.
- لقد مات المأمون واستخلف المعتصم، ثم دالت دولة العباسيين، وجاء بعدهم العثمانيون ثم دالت دولتهم، وأصبحت الأمة الإسلامية، جمعية أمم، وأخذ الفرنجة الأندلس، وأخذ اليهود فلسطين، فضرب كفًا بكف، وهو يدير رأسه شمالًا ويمينًا، قائلًا: أكل هذا حدثَ حقًا؟!
- أجل وأكثر من ذلك.

فاغرورقت عيناه بدموع لم أرها حتى بادلته دموعًا بدموع، فقد شعرت أني جرحته بهذه الأنباء، فأردتُ أن أخرجه من هذا الشعور، فقلتُ: أتدري ما هذا يا أصمعي؟ وأشرتُ إلى (التلفزيون).

قال: ما رأيته قبل اليوم، فما عساه يكون؟

قلتُ: هذه آلة عظيمة تُسمى (التلفزيون) وقد عرَّبه الطنطاوي فقال: (الرائي).

قال: ومن الطنطاوي هذا؟!

قلتُ: علمٌ من أعلام هذا القرن في الأدب واللغة والفقه، لعله من رجال زمانك، ولكنَّ ميلاده تأخر إلى هذا القرن.

قال: وما سرُّ عظمة هذه الآلة؟!

قلتُ: هي وسيلة من أعظم وسائل الاتصال، بين الشعوب، في هذا الزمن، تنقلُ أحوال بعضهم لبعض، مرئيةً مسموعةً، تصور أخبارهم، وتفضح أسرارهم، تعتني بأقل الناس فضلًا، أكثر من عنايتها بأفاضلهم، وقد جمعتْ بين الضار الكثير، والقليل النافع.

قال: هذا جمعٌ غريبٌ حقًا.

عندئذ حضر الغداء، وانشغلنا به، ولم نفرغ من غدائنا، الذي طاب كثيرًا للأصمعي، حتى انحسرت العاصفة.

استأذنته لأكمل رحلتي إلى مدينة الرسول ﷺ، قال: ألا تحب أن أصحبك، فقد مللتُ الوحدة؟

قلتُ: على الرَّحب والسعة، ثم أخذت بيده إلى سيارتي، وفتحت له الباب ليركب، فقال مستنكرًا: ما هذا الصندوق؟!

قلتُ: هذه سيارة نركبها، ونقودها من داخلها، فتقطع بنا مسافة الشهر في ساعات، ونحن جلوس. فركب وهو يردد: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين»، قلتُ له: لا تقلق؛ لن تغيب الشمس حتى نكون في مسجد رسول الله ﷺ. وانطلقنا على الطريق السريع، وهو يكاد لا يصدق ما يرى.

كنتُ أحدثُ نفسي، كيف يمكن أن يستوعب ابن القرن الثامن، ما وصل إليه أبناء القرن العشرين، من الحضارة المادية؟! قطع خواطري بقوله: إني أشعر بالأرض تدور بي. فأدرت المسجل قائلًا: أرهف سمعك لهذا الشعر الجميل، ولا تنظر إلى الطريق.

قال: هات: أسمعني، وكان يظن أني أنا الذي سأنشد، فقلتُ موضحًا: هذه آلةٌ تحفظ الصوت، وتعيده عندما نريد، وبدأ الصوت الرقيق:

نفرتيتي أنا أخناتون

أمانة ما عرفتيني؟!

أنا سقراط وإفلاطون

مداين فاضلة فيني

ابن سينا أنا القانون

كتابك ليه ناسيني؟!

ولقد كنتُ أطرب لهذا الشعر، عندما صرخ قائلًا: أهذا الكلام الذي تنسيني به الطريق؟! أوقف هذا الصوت، فامتدت يدي بلا شعور وأغلقتُ المسجل.

ثم قلتُ: نعم هذا شعرٌ نسمعه ويطرب له الناس ويصفقون، ونقرؤه في المجلات والدواوين.

قال: والله ما هذا من أساليب العرب، فضلًا عن أن يكون من شعرهم، ولقد بدأت أشعر بغثيان جراء سماعه.

قلتُ عفوك يا أصمعي، أسمعك الآن شعرًا يطربك، ويُذهبُ ما بك من الغم.

قال: هاتِ لنسمع.

بدأت أبحث بين الأشرطة عن شريط لأحد الشعراء، فيه قصيدة كنت دائمًا أقف أمامها تائهًا بين الحيرة والإعجاب، ثم أدرت المسجل، وإذا بالمقدم يقول: سنستمع الآن قصيدةً رائعة من جديد الشاعر الكبير؛ فاسترخى الأصمعي وقد راقته فصاحة المقدم، وبدأ الشاعر يلقي كلماته الرصينة بهدوء:

الخطوات الصمت.

الحالة تنسى الضد.

اللا شيء يسير هباء.

هجرة النوارس.

اللغة غبار.. وفلكٌ يدور.

الطريقُ صاعدٌ إلى الأسفل.

اللافتات واقفة.

فصرخ بي مرة أخرى: أوقف دابتك، فأوقفت السيارة، ثم التفتُّ إليه أسأله: ما بك يا أصمعي؟!

فإذا هو يرتعش كالمخنوق، وهو يقول: أخرجني. أخرجني. نزلتُ من السيارة، وفتحتُ له الباب، فألقى بنفسه

خارج السيارة وأنا أرشه بالماء، وأحاول مساعدته دون جدوى، وبدأ الخوف يتسربُ إليَّ، فهو لا يحمل ما يثبت هويته، وقد يموت بين يدي الآن، ولكن الله سلَّم، فأفاق بعد حين، وقد أوشكت أن أيأس منه، فتلفَّت حوله وهو يقول: كيفَ أتخلص مما علق بنفسي من كلامكم الذي تسمونه شعرًا، وارحمتا للعربية، والله لقد أضاعها العرب كما أضاعوا عزهم ومجد آبائهم.

قلتُ: أكلُّ هذا من الشعر الذي سمعتَ؟!

فصرخ في وجهي: لا تسمِّ هذا الكلام شعرًا، فليس بشعر، ولا هو من كلام العرب.

قلتُ: فليكن ما يكون، كيف يترك فيك هذا الأثر؟!

قال: والله للموتُ أهون عندي من سماعه، وسأموت قبلَ أن يزول أثره القبيح من نفسي.

قلت: ولكنَّ هناك شعراء عظماء بيننا آخرين، جرِّب أن أسمعك بعض أشعارهم.

قال: كلا. بل سأودعكم يا أبناء القرن العشرين إلى الأبد، ثم استقبل الصحراء وهو يقول: إن في الدرب القاحل لمنتأى عن كل هذا!!

ثم حمل متاعه على ظهره المحدودب، بيدٍ معروقةٍ وتركني ورحل، وخلفه الـ آه، وآه.

الإقطاعي(*)

انتهت من تحضير دروس الغد، تناولت صحيفة قديمة، تصفحتها، ولم تطل النظر إليها فقد قرأتها مرارًا.

نهضت بقامتها الفارعة، نظرت إلى صورتها التي تقترب من المرآة في خطوات معتدلة، حدقت إلى المرآة، نظرت إلى نفسها استدارت، تأملت وجهها الذي يبدو كهلال من خلال شعرها المنثور.

وقعت عيناها على صورة حصان معلقة على زاوية المرآة اليسرى، تذكرت أختها التي لم تترك مكانًا في الغرفة إلا تركت فيه ما يذكر بها، صورةً معلقة، أو رسمة بقلم الرصاص، ترى كيف حالها الآن؟! هل هي سعيدة بعد أن فارقت هذه الغرفة إلى بيت زوجها؟! لقد أحسنت حين انقطعت عن الدراسة، لو أنها معلمة مثلي لبقيت حبيسة هذه الغرفة، تسللت من عينها دمعة، تمردت على صمودها، مسحتها بأطراف أصابعها وهي تتذكر الحوار الذي دار بين أبيها والشاب الذي جاء لخطبتها منذ أيام:

(*) 1999م.

ـ أنت ولد طيب ومن أسرة معروفة، ولكن هل تريد البنت براتبها، وإلا بدون الراتب؟

ـ ماذا تقصد يا عم؟

ـ البنت براتبها لها مهر، وبدون الراتب لها مهر، وأنت بالخيار يا ولدي!!

هاهي الأيام تمضي دون أن يعود الشاب رغم أنه وعد بالعودة مع أبيه في اليوم التالي.

ألقتْ بنفسها على سرير أختها، وهي تتمتم: (البنت براتبها لها مهر، وبدون الراتب لها مهر).

في الصباح، جمعت كراريسها في حقيبتها وانطلقت على نغمات بوق السيارة التي تنقلها إلى المدرسة، وجدته يشرب القهوة مع أمها. سلَّمتْ عليهما، أخرج من محفظته عشرة ريالات أعطاها إياها قائلًا: ربما تحتاجين شيئًا يا بنتي، أخذتها وهي مطرقة وانسحبت باتجاه الباب.

تحت الخط(*)

كان صوت المؤذن يمزق رهبة السكون، ويحيل هدأة السحر إلى صوت بشير تطرب له آذان المؤمنين. قبل أن ينتهي الأذان، جافى جنبُه مضجعَه وهو يردد (أصبحنا وأصبح الملك لله). أسبغ وضوءه وفي خطواتٍ واثقةٍ سار إلى المسجد، عاد إلى منزله فإذا الوقت لايزال مبكرًا كان الكتاب الذي ودَّعه قبل نومه ما يزال إلى جوار سريره، قرأ فيه صفحات، أعدّ كوبًا من الحليب، شربه، ركب سيارته (الجيب) أدار محركها، سلك الطريق المؤدي إلى مدرسته وهو يحاور الشمس في لحظات ميلادها على قمم الجبال فيحظى من أشعتها بالقبلة الأولى، وسيارته تنساب في الطريق الصخري، تظهر حينًا وتغيب أحيانًا بين الأشجار الملتفة على جانبي الطريق، وكأنها واقفة تستقبله كل صباح، وهو يخب في السير تلقاء مدرسته المتربعة على ظهر الجبل الناظر شزرًا إلى تلك القرى الجاثية على قدميه.

يسير عكس الجاذبية، دون أن يشعر بها، فقد ألغى

(*) 1998م.

تأثيرَها شوقُه إلى تلاميذه الذين فارقهم ظهر الأمس وهم يلتفون حول سيارته، وكل صباح يستقبلونه بتحياتهم، وبسماتهم الصادقة تنطق بأرق لغات الحب.

دلفَ مكتبَ المدير، سجَّل اسمه أول الحاضرين من المعلمين، خرج إلى فناء المدرسة يستمتع برؤية التلاميذ وهم يمرحون والبسمات تفيض على وجوههم البريئة.

حضر بقية المعلمين قبل الساعة السابعة، وفي السابعة قُرع الجرس.

❁ ❁ ❁

أفاق من حلمه الجميل على صوت ساعة التنبيه فاصطدمت عيناه بأشعة الشمس من إحدى زوايا النافذة، ألقى بنفسه من فوق سريره، أسْكَتَ (ساعة التنبيه) بعنف تعودته منه كلَّ صباح، دخل الحمام، لامس الماء ثم صفَّ قدميه على طرف سجادة قابعة في زاوية الغرفة منذ مطلع العام الدراسي، قد امتزجت بفراش الغرفة من طول الإقامة، صلى ركعتين، كان سجودُ السهو خاتمةً حتمية لهما، خلالهما حدد مواقع (لوازم الدوام) الثوب العقال، الكراريس والكتب، قبل أن يُتِمَّ التسليمة الثانية وضع بصره على حقيبته ليجمع فيها بعض المقررات والكراريس، ولبس ثوبه، وخرج مهرولًا باتجاه سيارته الجيب وهو يركض وقد علَّق الغترة على كتفه وبشماله عقاله وحقيبته، سدد المفتاح

نحو الهدف المرسوم في واجهة الباب ثم ألقى بنفسه على مقعد السيارة، أدار محركها بيمينه وأغلق الباب بالأخرى، وأغلق (أزرار الثوب) ثبت (غترته) على رأسه، ثم توجها بالعقال، كل ذلك تم في لحظات.

انطلق ـ وفحيح سيارته يثير اشمئزاز المارة ـ تلقاء مدرسته التي يقطع نحوها طريقًا ذا وجهين، أحدهما إسفلتي أسود، والآخر صخري مصعد في الجبل، يقطعه وقد تحول خلف مقود سيارته (الجيب) كأنما هو راكب ثور إسباني، يصل إلى مدرسته البغيضة التي لم يحل لها أن تستقر إلا على قمة هذه الجبل.

وفي لحظة فتح باب السيارة، وأطفأ محركها، وضع قدمه اليسرى على الأرض وتبعتها الأخرى في حركة تكررت حتى أصبحت تلقائية، دخل مكتب المدير متظاهرًا بمزيد من العجلة والاهتمام، استل قلمه ليثبت ساعة حضوره، لكنه وجد أن مسطرة المدير قد سبقت قلمه، فرسم توقيعه الخجول تحت الخط واستدار في خطوات ذات معنى مغادرًا مكتب المدير وجميع حواسه تسير خلفه.

لقاء(*)

تمر به لحظات الانتظار ثقيلة وهو يتململ، يرمق الطريق لعلَّها تُشرق عليه من بين ثناياه، طال انتظاره وكاد يلفُّه اليأس ويثنيه عن ذلك اللقاء الذي لايعرف أسبابه، ولكنه ربما توقَّع نتائجه!

أطلق لخياله العنان فتصوَّرها بين ذراعيه، أقبلت متبخترة في مشيتها، زاهية بملبوسها. رمقته فبددت صرختُها المغرورة الظلامَ من حوله.

تملَّكه شعور بالخوف من هذا اللقاء الذي لم يجرِّبه من قبل، قرَّر الانسحاب، فسدَّتْ عليه المنافذ، باعدت بين ذراعيها وتنهدت، ارتمى في أحضانها، واستقر على صدرها.

أخذا جانبًا من الطريق وسدول الليل مَرْخيَّة عليهما، فلم ينتبه لهما المارة، وعندما مزَّقت الشمسُ حُجُبَ الليل، وجدَ الناسُ إلى جوار الطريق جملًا يعانق سيارة، وبينهما سائقٌ ذهب به عنف اللقاء.

(*) 1996م.

دمعة أب(*)

كان يتحرك بعنفوان الشباب، رغم سنواته الستين، كلما رأيته سألت نفسي هل سأكون كذلك بعد الستين؟ ولم التفاؤل؟ قل بعد الأربعين!!

رغم أن بيته بجوارِ المدرسة إلا أنني لم أره دخلها قبل اليوم، أراه كل صباح في مزرعته يشذب أشجارها ويسقي غرسها، وأحيانًا يتسلق الأشجار ليقطف بعض ثمارها، تستهويه حركة الطلاب وهم يؤدون التمرينات الصباحية. فينصرف عن عمله لمراقبة حركاتهم الرياضية، ولكنك تنظر إليه عندما يُفتتح البرنامج الصباحي بالقرآن الكريم، فتجده قد تسمَّر وكأنه تمثال صُبَّ في مكانه صبًا.

كنت وبعض المدرسين في حوار مع مدير المدرسة وفجأة وبلا مقدمات فتح الباب، فاتجهتْ أنظارنا جميعًا نحو الباب، فإذا هو بقامته الفارعة شاخص يبادلنا نظرات بنظرات. رحبنا به، سلَّم علينا بحرارة، تفضل يا أبا أحمد أهلًا وسهلًا.

جلس راكزًا عصاه بين قدميه وقد قبضَ على طرفها بكلتا يديه، كنا ننتظره ليُبدي سبب هذه الزيارة، قذف بآهة

(*) 1999م.

اقتلعها من قرارة نفسه، وقد شعرنا بدخان نفسه المحترقة يلفح وجوهنا المتسائلة.

بعد أن مرَّر لسانه بين شفتيه الجافتين قال: «رزقنا أولادًا، ففرحنا بهم، وعقدنا عليهم آمالًا عظامًا، ويالیتنا عشنا محرومين، لنموت مستريحين»، قطعت حديثه دمعة قفزت من محجرها عنوة، حاول أن يتجاهلها فأكمل حديثه: «عندما عدت ضحى من مزرعتي لأفطر وأستريح إذا بابني ما يزال نائمًا في فراشه، بعد أن تظاهر لي صباحًا أنه ذاهب إلى المدرسة، وأنتم أيها المعلمون غافلون صامتون، أين هيبتكم؟ أين عقابكم له ولأمثاله؟ أين عُصيِّكم؟ أهذه التربية الحديثة التي تزعمون؟ أبناؤنا يضيعون وأنتم تتفرجون».. خنقته العبرة، فاستسلم لها وقد ستر جميع وجهه بكفيه، وإذا الدمعة الأولى يختبئ وراءها سيل من الدموع، لقد عجبت لهذا الشيخ، يبكي بكاء الصغار، ولكن سرعان مازال عجبي، عندما تذكرت أنه أب، وأن الخوف على الأبناء يفعل بالآباء فوق هذا.

حاول المدير والمدرسون تهدئته، وتهوين الأمر عليه، وقد تغيرت نبرة صوته، وكأن هذه الدموع قد أطفأت لهيب قلبه المحترق، فعاد يقول: «أنا أعرف أنكم تؤدون رسالة عظيمة، وأنكم تتعبون من أجل أبنائنا ولكن قديمًا قيل: لا يتعلم إلا راغب أو راهب، فأين أبناؤنا من هذين الصنفين؟» ثم انصرف بعد أن وعده المدير بأن ينزل بابنه أقسى العقوبات.

الكرسي الدوار(*)

استيقظ مبكرًا على غير عادته، اتجه إلى مقر عمله، دخل مكتبه، جلس على كرسيه، ألقى نظرة عرف من خلالها مواقع الأشياء. الخزانة، دولاب الملفات، ساعة الحائط، مجموعة من المجسمات تزين مكتب المدير، ابتسامة رضى تقتحم هذا الجو، تذكر شيئًا، قطع ابتسامته الوليدة، زمَّ شفتيهِ ليمسح أثرها، قطب جبينه، شد حاجبيه، تأكد أن أحدًا لم يره متلبسًا بتلك الابتسامة، ثبَّت نظارته ـ ذات الإطار الذهبي ـ على عينيه، التفت إلى التقويم لينزع ورقة الأمس، لاحظ أن الكرسي يستدير، أداره يمينًا. شمالًا. يمينًا. أخذ نفسًا عميقًا ينم عن ارتياح أعمق، شَعَرَ أنه يعلو شيئًا فشيئًا، ليس يدري أهو يعلو أم أن الأشياء أخذت بالانخفاض من حوله؟!

حضر الموظفون، مر بعضهم للسلام عليه وتهنئته بالمنصب الجديد، مدَّ أحدُهم يده للسلام على المدير الجديد، ولكنه فوجئ أنه لا يستطيع تحريك يده. بادره بقوله: سلامتك يا سعادة المدير، رفع يده متثاقلًا، وعيناه

(*) 1997م.

تطلان من فوق إطار نظارته، وهو يحدث نفسه: مسكين هذا الموظف كان يريد أن يقول: مبروك!

لقد تغيرت أشياء كثيرة فأصبح يشعر أن تناول القلم لرسم توقيعه على المعاملات أصبح أمرًا شاقًا، ولكن الأمر الذي يلح على تفكيره، أن الأشياء من حوله تبدو أصغر مما كانت عليه، النافذة بالأمس أكبر، الباب اليوم أصغر.

عندما يدلف المراجعون مكتبه يتقزمون حتى لا يكاد يراهم. وجد بين أوراقه ورقة التقويم التي نزعها صباحًا، أراد أن يضيف إلى ثقافته الضئيلة شيئًا جديدًا، فأسند ظهره إلى كرسيه وهو يقرأ المكتوب عليها، أعاده مرارًا لعله يفهم فلم يفلح، سأل نفسه، ماذا يقصد (أبو ماضي) بقوله:

نسي الطين ساعة أنه طين حقير فصال تيهًا وعربدْ

وكسا الخَزُّ جسمَه فتباهى وحوى المالَ كيسُهُ فتمرَّدْ

لم يجد تفسيرًا لهذين البيتين، فألقى الورقة في سلة المهملات، هم بالانصراف ولكنه تذكر أنه لم يُجْرِ أيَّ اتصال منذ الصباح. رفع السماعة، عزف على أرقام الهاتف، لم يجب أحد، وضع السماعة وهو يتمتم، لعلها نائمة...

لملم بعض الأوراق وجريدة اليوم، قام لينصرف، ولكنه وقف أمام الباب، كان يسير خطوات باتجاه الباب ثم يتراجع، كرر ذلك مرارًا، كيف يخرج والباب يبدو له

صغيرًا جدًا؟! لقد كان الباب عاديًا في الصباح، فما الذي تغير؟

خياره الوحيد أن ينتظر حتى يأتيه أحد الموظفين، فوجئ بأحد الموظفين يدخل من الباب دون عناء، تماسك حتى سلم الموظف أوراقه وانصرف، حاول الخروج فلم يتمكن، كرَّر المحاولة دون جدوى، استدعى طبيبه النفسي، خلال ساعة حضر الطبيب، اشتكى له من هذه المشكلة، أطرق الطبيب قليلًا ثم همس في أذنه قائلًا: من الغد استبدل بالكرسي الدوار آخر ثابتًا، ولا تستعمل هذه النظارة فهي تحول بينك وبين رؤية الأشياء على حقيقتها. فصرخ في وجه الطبيب قائلًا: هذا يعني ألا أكون مديرًا!!

الموعد لم يحن بعد(*)

استيقظ مذعورًا على صوت أناتها التي تنفثها من قرارة صدرها، كعادتها خلال شهور مرضها.

أسرع إلى المطبخ وفتح الثلاجة. عاد إلى غرفة نومها ومواجعها وآلامها. وضع الماء والدواء على منضدة بجوار سريرها، أضاء النور؛ لم يجدها على السرير، تُرى أين ذهبت؟! فتَّش عنها في زوايا البيت ذي الغرفتين فلم يجدها، يخرج من غرفة، يدخل الأخرى، يعود إلى الأولى بلا وعي، كادت الدهشة تعصف به، مال على الجدار، أحسَّ نارًا تضطرم في صدره، حاول إطفاءها بالدموع التي لم تزدها إلا اشتعالًا، عندما استيقظت ـ في نفسه ـ صورتها وهي محمولة على الأعناق إلى المقبرة، وهو يودع معها قلبه، وسعادته ويعود بذاكرته التي لم يستطع الموت أن يحرمه منها أيضًا.

يلتفت إلى نفسه ليستأنف معها الحديث الذي بدأه قبل أن يأخذه النوم إلى عالم مشحون بالكوابيس: من لك

(*) 1997م.

بعدها؟ لقد أصبحت وحيدًا تجتَرُّ الذكريات الجميلة لتبللها بدموعك، ثم تبتلعها مرة أخرى، بينما هو كذلك سمع مؤذن الحي ينادي لصلاة الفجر.

أحسَّ أن هذا النداء موجه إليه ليقول له: «إن الله أكبر مما أنت فيه. إن الله أكبر منك، وأقدر على إسعاد زوجتك. إنها إلى جوار ربها وهو ألطف بها منك. إن الله يبتليك ليمتحن صبرك، ويجزل أجرك، ويرفع منزلتك». أحسَّ النار في صدره تهدأ قليلًا، فأراد أن يُبرِّدها بالوضوء، فتوضأ بماء تخالطه الدموع.

في المسجد أتم صلاته ثم استند إلى أحد الأعمدة، يردد أذكار الصباح، غافلته عيناه فاستسلم لِسِنَةٍ من النوم. رآها تُطِلُّ عليه في أحلى صورة، وقف أمامها وقد بهره جمالُها، اقتربت منه وهي تبتسم فتشرق ثناياها نورًا يزري بنور الشمس، يرى جسدها من خلف ثيابها، ويرى من خلالها الأشجار والأنهار التي من ورائها، لم يملك نفسه فأقبل عليها ليضمها إلى صدره، فتراجعت وهي تقول: ليس الآن، أنا في انتظارك، وتماهت في سحابة بيضاء.

تنبه من غفوته وهو يناديها، وأنظار المصلين ترشقه بسهام الإشفاق والاستغراب، فانسل من المسجد وصورتها تضيء له الطريق.

الرجم بالكلمات(*)

تنعقد جلسة العم صالح ذي الستين عامًا بعد صلاة العصر من كل يوم. منذ عشر سنوات ولدت هذه الجلسة اليومية الصغيرة، أمام باب العم صالح يكاد أعضاؤها لا يتغيرون، ربما زادوا عندما يسكن الحارة العتيقة ساكن جديد يتمتع بالصفات نفسها، ولدت على طبول حرب الخليج الثانية، حين كانوا يحرصون على أداء صلاة العصر قبل الرابعة عصرًا ليدركوا أول أخبار الإذاعة البريطانية. يتنوع الحديث من تحليل للأخبار، إلى توقع للأحداث القادمة إلى حنين إلى الأيام الخوالي، وربما حدثهم العم صالح عن حرب (67) فلا يلبث أبو ناصر أن يتناول بالمقارنة والوصف تلك الحرب، حين كان جنديًا يتابع أخبارها، ثم يأتي دور سالم (المؤذن) فيحدثهم عن حرب رمضان التي شارك فيها، ضمن الجيش السعودي آنذاك، كل واحد يتوقع المبالغات التي يغلف بها الآخرون حكاياتهم ولكنهم يبدون تصديقهم وعجبهم مما يسمعون.

انتهت حرب الخليج الثانية، وبقي ملتقى العم صالح

(*) 2000م.

ينعقد كل يوم، إلا حين يغيب صالح لزيارة أولاده في العاصمة أو للعلاج.

في منتصف الحارة على ناصية الشارع أمام المسجد يلتقي العم صالح ورفاقه كل يوم، ربما كرر أحدهم قصة نسي أنه حدثهم بها فيتندرون عليه بما يضيف أو يغير من تفاصيلها بسخرية مبطنة، حتى أصبح ذلك ميدانًا للتسابق في اصطياد (القفشات). كثيرًا ما يتحدثون عن بطولاتهم الليلية، وربما ساق أحدهم مغامراته الغرامية أيام الشباب فانساق الجميع خلفه، وكلهم يختم قصته بقوله: (سقى الله تلك الأيام) ربما خرج شاب من صالون الحلاقة القريب برأس نصف محلوق، أو بشعر متهدل على جبينه، فسخروا من شبان اليوم وهم يأسفون على دم الرجولة المسفوح على أبواب المقاهي وأبواب صالونات الحلاقة، وصالات الترفيه.

في الصيف تكثر المظاهر الغريبة على العم صالح ورفاقه، ولكن الدهشة كانت تجعلهم ينظرون بأفواه فاغرة، كلما رأوا اثنين أو ثلاثة يتراقصون على الموسيقى الغربية الصاخبة وكلبهم باسط ذراعيه على باب (الموستنق) المكشوفة فلا ينقضي عجبهم من هذا المشهد الغريب.

منذ أيام انشغلوا عما تعودوا من حديث، منتظرين تلك المرأة التي لا تخلف موعدها ماشية من أمامهم في الرابعة عصرًا حتى تغيبها المباني في آخر الشارع، وعائدة

قبل صلاة المغرب بقليل، لم يتركوا احتمالًا إلا توقعوه، ولكنهم اطمأنوا إلى رأي كبيرهم عندما قال: لا شك أنها امرأة فاسدة تقضي هذا الوقت مع عشيقها الذي ينتظرها خارج الحارة.

زاد هذا القول شهيتهم لتخيل بقية تفاصيل مايحدث، ولكنهم كانوا يخفون هذا الاهتمام بكيل الشتائم لها، واستنزال اللعنات على هذه الفاسدة التي ستعكر صفو الحارة، وتسيء إلى سمعتها، أصبح منظرها وهي تطل من أعلى الشارع وتغيب في أسفله لا يفارقهم، فيتخيلونها قبل مجيئها، فإذا بدت في خطواتها الحثيثة، أخذوا يتلمظون، وهم يكيلون الشتائم بصوت آخذ في الانخفاض كلما اقتربت، حتى يتلاشى، آخذًا بالارتفاع كلما بدأت بالابتعاد من جديد، ينطلق العنان لخيالاتهم فيرسمون لها شتى الصور، ويراها كل واحد منهم خلف عباءتها كما يتمنى، يتلذذون بسرد حكايتها على كل ضيف جديد يجلس في مجلسهم، ويعجبون من تفاوت ردود فعل المستمعين الجدد.

تسابقوا اليوم لسرد القصة ـ وكلما نسي أحدهم جزئية من الرواية أوردها الآخر ـ أخذوا يقصونها على ضيفهم الجديد (أبو تركي) بعد أن أقسموا عليه أن يجلس معهم، برغم أنه رجل لا يكثر الحديث مع أحد، يؤدي صلاته ثم يعود إلى بيته.

ففاجأهم بقوله: هل تعلمون من هذه المرأة التي تتحدثون عنها؟! هذه أرملة، سكنت بجوار بيتي مع أولادها الأربعة، وبجهود المحسنين حصلت على عمل في مدرسة (مسائية) أسفل الحارة، لتنفق على نفسها وبنيها.

ذات المنديل الأصفر(*)

في إحدى عشايا الربيع من عام 1997م، وجد نفسه في قرية لم يختلط عطر زهورها بالعطور الباريسية، ولم يعكر ترابها فتات الإطارات الأمريكية، تبدو وكأنها مسكونة بالسكون. ساقته إليها يقظة وفاء لصديق قديم، وصف له مسالكها ورسم دروبها، على دفتر المحاضرات، على غفلة من أستاذ البلاغة، في سنتهما الجامعية الأخيرة.

أوقف سيارته قريبًا من مدخل القرية، وسار في طريق متعرج، يتسع حينًا ثم يضيق حتى تكاد قدماه تختنقان. كان يتابع الخريطة التي رسمها له صديقه منذ سنوات، ولم تكن كلُّ المناظر غريبة عليه، فكأنما عادت به الأيام إلى قريته أيام فطريتها.

وبينا هو يسير بين جدران القرية المتقاربة البيوت، وجدها أمامه، التقت عيناه عينيها، فوقف في مكانه لا يريم، وخطواتها تقربها منه، فلما دنت أشاحت بوجهها الجميل وقد بدت حمرة الخجل على خديها. فلم يكن له

(*) 1998م.

أمنية لحظتها إلا أن تجود بالسلام، ولكنها لم تفعل. مرَّت بخطواتها المتقاربة المتتالية حتى حجبتها عنه منازل القرية، ولكن صورتها لم تغب عنه، فقد اختزلت من الزمان عشرين عامًا، حين عادت به إلى أيام كانت الفتاة تتلفع بمنديلها الأصفر يبدو من تحته جبينها، وربما مقدمة رأسها، وقد عقدت طرفيه حول جيدها، وامتد ليستر موضع الفتنة من صدرها، ومن تحته تنسدل ضفيرتان كأنما ضُفرتا بخيوط من سواد الليل.

خَبَتْ في نفسه جذوة الوفاء لصديقه، وحلَّتْ محلَها وقدةُ الشوق إلى رؤيتها مرة أخرى، فقد محت صورتها عقدين من زيف الحب والجمال، وعادت به إلى قريته، والفتيات غاديات في شؤونهن رائحات، متلفعات بمناديلهن الصفراء، ولما يزل للحياء على خدودهن أثر.

فما أفاق من دهشته إلا وقد هان أمر صديقه في نفسه، ووجد قدميه تعودان به أدراجه، والخيال يداعبه أن سيلقاها ثانية، ثم يهزأ به، كلما انحنى به الطريق، فلم يرها، حتى غادر القرية الحالمة، وهو سارح الفكر يكاد (يضيع من قدمه الطريق).

الأستاذ محجوب(*)

مهجوب .. مهجوب ..

نادت الممرضة الفلبينية بلكنتها الأعجمية. نهض الأستاذ محجوب من مقعده بين المنتظرين، أشارت إليه الممرضة بالدخول إلى غرفة الطبيب، سلَّم وهو يتأمل جدران العيادة من خلال نظارته السمكية.

ـ أهلًا يا أستاذ محجوب. تفضل اجلس، قالها الطبيب وقد نصب قامته ومد يده لمحجوب، ثم أردف: تفضل. قل ماذا تشكو؟

ـ لست أدري ـ بالضبط ـ يا دكتور ولكنني أشعر بخيبة أمل وإحباط شديدين دفعاني إلى زيارة عيادتك.

ـ هل تستطيع تحديد سبب الإحباط؟

ـ ربما كانت الحقيقة التي توصلت إليها هي القشة التي قصمت ظهر البعير. تأوه محجوب ولم يتم كلامه.

ـ قل يا محجوب ما هي تلك الحقيقة؟

(*) 1999م.

ـ لقد اكتشفت أن الحياة تغيرت ولم تعد لها تلك المتعة وذلك البريق، والناس يا دكتور! لقد تغير الناس بشكل فظيع!

ـ بالتأكيد يا أستاذ محجوب، هناك بعض التغير ولكن ليس إلى هذا الحد.

ـ استنتاجي هذا يا دكتور مبني على دراسة مقارنة ودقيقة بين المجتمع اليوم والمجتمع في عصور مختلفة من التاريخ البعيد والقريب، والدراسة منشورة في كتابي: (التاريخ لا يكرر نفسه).

ـ إذًا أنت كاتب يا أستاذ محجوب!

ـ هذا دليل آخر على تغيُّر الناس واضمحلال بهجة الحياة، وغياب الشعور بجهود العاملين، ها أنت طبيب كبير ومثقف ولا تعرف من هو (محجوب عبد الستار)!

ـ معذرة يا أستاذ محجوب، فأنا منهمك في عملي ولا أجد الوقت لمتابعة كل ما يكتب.

ـ لست وحدك يا دكتور من يغفل عن قيمة (محجوب عبد الستار)!

ـ لا تقف كثيرًا عند هذه المواقف يا أستاذ محجوب. ولكن لم تخبرني كم عمرك؟

ـ عمري يا دكتور ستون كتابًا. وعشرات المحاضرات

والندوات والأبحاث والدراسات. يا دكتور ليس مهمًا كم سنة يعيش الإنسان، المهم ماذا أنجز خلال هذه السنوات؟

ـ هذه فلسفة عظيمة يا أستاذ محجوب، ولكن لمعرفة السنوات علاقة بتشخيص المشكلة التي تعانيها.

ـ عمري ستون سنة يا دكتور.

ـ تبدو أصغر من ذلك بكثير يا أستاذ محجوب، فما الذي تشكو؟

ـ إني لا أشكو شيئًا محددًا، ولكن تساورني هموم تقض مضجعي حتى أفقدتني لذة الحياة.

ـ تصور يا دكتور: لم يعد للقراءة والكتابة تلك المتعة التي كانت تحلق بي في سماء السعادة!

ـ لا تقلق يا أستاذ محجوب هذه عوارض سرعان ما تزول بشيء من الهدوء والاستجمام.

ـ أريد منك يا دكتور دواء يمحو كل المعارف التي تكدست في رأسي.

ـ لحسن الحظ يا أستاذ محجوب أن العلماء لم يخترعوا دواء يفرغ الذاكرة من مخزونها، ولو اخترعوه فلن نضحي بهذا العقل الكبير الذي استوعب وأنتج هذا الكم من المعرفة.

ـ لقد جَنَتْ عليَّ هذه المعرفة، فجعلتني أعيش قلقًا، لا أتصالح مع الواقع، ولا أنجح في تغييره. فالناس يتجاهلون أدب الأديب، وعلم العالم، وفكر المفكر، ولا يقدرون سوى صاحب المال!

ـ هذا كلام مبالغ فيه يا أستاذ محجوب!

ـ كلامي مبني على دراسة استقرائية لا يتطرق إليها الشك، وأنت تعلم ذلك أيضًا يا دكتور، ولكن موقعك يحتم عليك أن تحاول إيهامي بغير ذلك.

ـ أبدًا يا أستاذ محجوب، العلماء والمفكرون والأدباء هم النجوم التي يُهتدى بها في دروب الحياة.

ـ كنت أعتقد ذلك أيضًا يا دكتور.

ـ فما الذي تغير؟!

ـ الدراسة التي أجريتها أبانت لي؛ إلى أي حد تدهور حال المثقف!

ـ هل تسمح لي بالاطلاع على الدراسة؟

ـ بكل سرور سأحضرها لك غدًا.

في موعده حضر الأستاذ محجوب بعد أسبوع قضاه الطبيب في قراءة كتابه (التاريخ لايكرر نفسه) استقبله بحفاوة بالغة.

ـ تفضل أيها العبقري، تفضل أيها المفكر العظيم!

ـ أنت تجامل يا دكتور، ليت الناس يعترفون بنصف ما تقول.

ـ كل الناس يدركون ذلك ولكنهم يرونك أعظم من أن تحتاج إلى إشادتهم، أو رأيهم فيما تكتب.

ـ إني أشك في ذلك.

ـ لك الحق أن تشك فالناس لا يوفون العظماء حقهم إلا بعد رحيلهم.

ـ من لم يحتفِ بفكري في حياتي لن يلتفت إليه بعد مماتي. ولكن أرجوك يا دكتور أعطني دواء يريحني، ويمحو كل المعارف التي علقت بذهني.

ـ ليس هذا الحل يا أستاذ محجوب.

ـ فما الحل إذن؟!

ـ الحل أن تعمل دون أن تلتفت إلى ردود أفعال الناس تجاه ما تفعل.

ـ لو أن ردودهم تجاه جميع الأعمال سواء لهان الأمر، ولكنهم يحتفون بالأعمال التي لا تنفع ويهملون أعمالي.

ـ سيقدرون قيمة ما تقدم يومًا.

ـ أفهم ما تعني يا دكتور! إنك تقصد عندما أموت، أليس كذلك؟

ـ ربما

ـ إذا كانت حياتي هي الغبار الذي يحجب أعمالي عن الأنظار فلا خير فيها.

قالها وهو يستأذن الدكتور خارجًا من العيادة.

تذكَّر الطبيب الأستاذ (محجوب) عندما وجد صورته على غلاف إحدى المجلات، وقد كتب تحت الصورة (عدد خاص عن الراحل الأستاذ محجوب عبد الستار المفكر والمؤرخ الأديب الذي أثرى المكتبة العربية على مدى أربعة عقود).

وبقيت الصحف أيامًا تمطر الطبيب برثاء الأستاذ محجوب!!

أمام الباب الزجاجي(*)

على غير عادته بقي عمر يتقلَّب على سريره القابع في زاوية الغرفة، يتأمل أطفاله الأربعة وأمهم التي ترقد إلى جوارهم، وقد تبعثر في الغرفة ضوء المصباح الكئيب الذي يرقص كلما عزفت الرياح، كان جسده محتاجًا إلى النوم، بعد عناء يوم مفعم بالشقاء، ولكنَّ نفسه قد امتلأت بهاجس تحسين الوضع المالي، الذي طالما حدث زوجته عنه، حتى أنها نامت وقد غاضبته عندما أخبرها بعزمه بيع مزرعتهم الوحيدة والسفر إلى المدينة، قالت له:

ـ نحن نعيش من محصول هذه المزرعة، راضين شاكرين، إن أنت بعتها سوف يذهب المال ونبقى نتكفف الناس.

ـ لن يضيع المال، سأستثمره في مشروع يدرُّ علينا أرباحًا أكبر بجهد أقل.

ـ سيضيع أولادنا يا عمر إن بعت مزرعتنا الوحيدة.

ـ الضياع أن يبقى أطفالنا ينتظرون لقمة مغمسة

(*) 2000م.

بالشقاء، ثم لا تكاد تسد رمقهم، ولا نجد مانستر به أجسادهم.

ـ قاطعها :

ـ نامي يا فاطمة، غدًا سنتحدث في هذا الموضوع.

تعودت فاطمة أن تصمت عندما ينهي عمر الحوار بهذه الصرامة، وكثيرًا مايفعل. تعتقد فاطمة ألا خير في امرأة تتحدث بعد أن يسكتها زوجها. كانت فاطمة مجهدة بما يكفي لكي تستسلم لنوم عميق.

❀ ❀ ❀

ـ سأذهب من غد لأبيع بعض سنوات عمري في سوق المدينة. قال عمر.

ـ هل جننت يا رجل تبيع سنوات عمرك الذي لا تملكه، من أجل المال؟!

ـ ليس في الحياة مايدعو إلى الحرص عليها.

ـ ارحم نفسك من هذا الهاجس الشيطاني المخيف.

ـ مغبون ذلك الذي سيشتري مني سنوات البؤس والشقاء، قالها ضاحكًا، ثمَّ زمَّ شفتيه.

وبدأ عمر يلملم بعض أشيائه الخاصة واتجه إلى الباب، حاولت فاطمة أن تحول بينه وبين الخروج، فأشاح بوجهه عنها بعد أن أزاحها عن طريقه، والأطفال يراقبون ما يحدث، وقد بدا الذعر في عيونهم الدامعة.

تركض فاطمة خلف عمر تاركة أطفالها وبيتها، لم يلتفت عمر بل واصل سيره حثيثًا، ظهر لفاطمة عجزها عن رد زوجها فانثنت عائدة إلى أطفالها. احتضنتهم واحدًا واحدًا، وقد امتزجت دموعها بدموعهم.

كان المؤذن ينادي لصلاة العصر عندما ركب عمر أول سيارة متجهة إلى المدينة. بعد صلاة العشاء دخل عمر المدينة، بدت المدينة زاهية بالسيارات النظيفة والفارهة، والعمارات ذات الواجهات والأبواب الزجاجية، وأضواء المحال واللافتات والشوارع تحيل ليل المدينة نهارًا، لم يكن منظر المدينة غريبًا على عمر فقد زارها عدة مرات لمراجعة المستشفى بزوجته أو بعض أطفاله، ولكن منظرها الليلة يبدو زاهيًا أكثر من ذي قبل.

كان عمر بين الأمل المنشود والخوف من القادم المجهول يتأرجح بين سرور لم يعهده، وخوف يحاول النفاذ إلى قلبه.

سأل عمر أحد المارة عن محل بيع الأعمار، قاسه بنظراته، ثم مد شفتيه وهو يشير إلى مبنىً يتوسط المحال التجارية ذات الأنوار الساطعة.

اتجه عمر إلى المبنى، وقف يتأمل لافتة قد علقت على واجهة المبنى، حاول أن يفهم من كلماتها المضيئة شيئًا دون جدوى، سار خطوات باتجاه الداخل ولكنه وجد نفسه يصطدم بشيء لم يره. تقهقر خطوات وهو يمرر يده

على جبهته، ثم تقدم وقد مد يديه أمامه كما يفعل الضرير. تلمس الزجاج ثم حانت منه التفاتة فإذا شاب يقف إلى جواره.

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أن أدخل هذا المحل.

ـ لا يمكنك ذلك، ألا تدري كم الساعة؟!

ـ ولكني أرى المحال ما زالت مفتوحة.

ـ هذا المحل يغلق في التاسعة، والساعة الآن العاشرة مساء!

ـ ما العمل وقد جئت من قرية بعيدة وليس بوسعي العودة الآن؟!

ـ ليس أمامك إلا أن تنتظر حتى الصباح.

ـ لا بأس سأنتظر.

قضى عمر ليلته أمام الباب الزجاجي، أشفق عليه الحارس فقدم له غطاء، فأخلد إلى سبات عميق، لم يقطع نومه إلا أذان الفجر، فتقدم شاكرًا الحارس وأعاد إليه غطاءه، ومع بزوغ الشمس عاد عمر إلى مكانه أمام الباب الزجاجي. كان محتاجًا إلى الطعام ولكنه خشي إن هو ذهب أن يتأخر، فآثر أن يبقى جائعًا حتى ينجز ما جاء من أجله.

في الضحى وبعد طول انتظار فتح الباب الزجاجي،

مما أثار دهشة عمر أن هذا الباب يتحرك بمفرده بمجرد أن يرى قادمًا، كاد ينسيه هذا المشهد ما جاء من أجله. تقدم في خطوات متئدة، لما انفرج الباب جمع أطراف ثيابه ثم قفز إلى داخل المبنى ليجد نفسه في بهو واسع قد زينت أرضيته وجدرانه بالرخام، فوجد لقدميه عليه وقعًا غير منتظم.

دخل مكتبًا فخمًا فوجد رجلًا قد تكورت كرشه حتى استرخت على فخذيه، وتهدلت أوداجه، ومما أثار اشمئزازه أن الرجل الذي أمامه بلا شارب ولا لحية.

سلَّم عليه بلكنته القروية، وهو يمد يده ليصافحه، فمد الرجل أطراف أصابعه، وهو يرمقه بنظرات متسائلة.

ـ عندي سنوات من العمر تزيد عن حاجتي، وأنا محتاج إلى ثمنها، فهل تريدونها؟

ـ كم سنة تريد أن تبيع؟

ـ حسب الثمن الذي تدفعون.

ـ الحقيقة البائعون كثيرون هذه الأيام، ولكن لا بأس. قالها وهو يضع يده على حافة المكتب ليرن جرسًا في البهو الكبير.

لم ترتد إليه يده حتى دخل شاب متأنق في لباسه، فأشار إلى عمر قائلًا:

ـ هيا معي.

ـ إلى أين؟!

ـ لنتم إجراءات البيع.

ـ ولكن أين الثمن؟!

ـ لا تستعجل، بعد أن توقع تنازلًا عن السنوات التي ترغب في بيعها ستقبض الثمن مباشرة.

كانت فاطمة وأولادها الأربعة ينتظرون عند باب المبنى، فقد لحقوا به صباحًا، لعلها تدركه قبل أن يعبث بسنوات عمره.

رأت فاطمة شيخًا جاوز السبعين من عمره، وقد تهدل حاجباه على عينيه، واختلط شعر شاربه بشعر لحيته البيضاء، يخرج من الباب الزجاجي، ويتجه نحو فاطمة وبنيها وهو يحدق فيهم، ويتكئ بيده المرتعشة على عكاز أنيق، أشار بعكازه إلى فاطمة وبنيها وهو يقول:

ـ ما الذي جاء بكم يا فاطمة؟!

ـ جئت أبحث عن زوجي، ولكن من أنت؟ وكيف عرفتني؟!

ـ ضحك الشيخ ضحكة باكية وهو يقول بصوت متهدج: أنا زوجك يا فاطمة، أنا عمر، ألم تعرفيني؟!

ـ أطرقت فاطمة في ذهول وهي تذكر الله في نفسها.

ـ أنا عمر. ألا تصدقين؟! أكل هذا لأني غبت عنكم ليلة واحدة؟!

ـ كيف أصدِّق وأنت تكبر عمر بأربعين سنة؟!

ـ أنت دائمًا لا تخطئين التقدير يا فاطمة، لقد بعت لهم أربعين سنة من عمري قالها وهو ينحني ليقبل الأطفال.

وبصرخة هستيرية قالت فاطمة: لا.. لا.. لا، وهي تدفعه عن أطفالها.

يفيق عمر على بكاء زوجته وصراخها، فيقوم من زاويته إليها ـ وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ـ ليهدئ من روعها، ويناديها: فاطمة.. فاطمة.. وهي تدفعه عنها ثانية قائلة: لست عمر.. لست عمر..

(1)

على رصيف الحياة

نادي أبها الأدبي 2003م

غربة أديب(*)

جمعتنا مقاعد الدراسة في المرحلة الثانوية منذ خمسة عشر عامًا، ثم افترقنا فلم أره إلا من خلال صورته على صفحات الجرائد والمجلات التي تنشر مقالاته الأدبية.

كنت أجد في مقالاته بعض ما يدور في نفسي. كلما قرأت له شيئًا تصورتنا نجلس كما كنا على مقعدين متجاورين في المدرسة ولا نكاد نفترق خارجها حتى خلال الإجازات الأسبوعية والصيفية. كان تشابه أفكارنا وميلنا إلى الهدوء حينًا والصخب أحيانًا من الجوامع بين روحينا. رغم أنه ربما مال إلى الصخب ساعة هدوئي فنفترق ثم لا تلبث أن تجمعنا الألفة التي لم نعد معها نستنكر أن نختلف.

كنت جالسًا في صالة المغادرين أقرأ الجريدة عندما وقف أمامي بقامته المديدة، رفعت رأسي لأتبين الواقف أمامي فانحنى قائلًا: أنت فلان؟! قلت: أجل، وأنت فلان؟! قال: نعم.

قمت إليه لأعانقه رغم الفرق بين قامتينا، جلسنا

(*) 2000م.

بانتظار الإعلان عن الرحلة التي كان يفصلنا عنها ساعة مرت سريعًا، استرجعنا خلالها الذكريات الندية والطرائف التي تزخر بها حياة الطلاب، ثم تغير مجرى الحديث إلى الأدب، واتضح أنه يقرأ ما أكتب كما أتابع كتاباته، شربنا الشاي وكانت ضحكاتنا تعلو أحيانًا فتلفت انتباه الجالسين حولنا، وكأننا قد عدنا طلابًا في المرحلة الثانوية.

كنَّا كذلك إلى أن سقط من لساني سؤالٌ، فكأنما دحرجت به صخرة من قمة جبل؛ حينما قلت ترى ماذا سنجني من الأدب؟!

قال إذا كنت ما زلت تسأل فقد أجابتني الأيام عن هذا السؤال، أجابتني حين رأيت أصحاب الرؤوس الفارغة يسبقونني في ميادين الحياة. وأجابتني عندما ألجأتني إلى أن أقترض من أحدهم فقال وهو يناولني المال: ألم أقل لك لن تنفعك هذه القراطيس التي أفنيت مالك ونظرك في جمعها وقراءتها؟ لم يكن أمامي إلا شكره على نصيحته الثمينة.

إنها تجيبني كلما تلفت حولي فلم أجد صديقًا صادقًا يقاسمني همي ويشاركني في فكري إلا اثنين أو ثلاثة، أتردد اليهم ويترددون إلي حتى لكأننا نكتب ليقرأ كل واحدٍ منا الآخر فحسب.

إنها تجيبني كلما وجدتني مجبرًا على مصاحبة أناسٍ

مدار حديثهم عن أسعار الخضار، وإذا استخف أحدهم بحديث الخضار تحدث عن الهاتف المحمول، أما حديث السيارات فهو الحديث الذي يسبق أحاديث سوق الخضرة ويختم به المجلس، ويتخلل هذا وذاك ما الله به عليم من ألوان الغيبة والخوض في أعراض الناس، والسخرية وتتبع السقطات، ويحمضون مجلسهم بحديثهم المكرور عن الزوجة الثانية ويتندر بعضهم على بعض بعجزه عن الزواج بثانية وربما بثالثة، حتى أجدني مجبرًا على مغادرة مجلسهم ـ كما كنت مجبرًا على حضوره ـ في نوبة من الغثيان.

أما ما يُسمى بالوسط الثقافي أو الأدبي فقد وجدت فيهم من يؤرقه نجاح الآخرين وتسره سقطاتهم، حتى أصبح كل شادٍ ناقدًا، فمن أعجبته معانيك لم يعجبه أسلوبك، ومن أعجبه أسلوبك نقد ألفاظك، وآخر يتهمك بالتزمت في فكرك، ويأتي من ينقد عليك في النص نفسه انحلالك من قيد الأخلاق، ويتهمك بقلة الحياء والاستهانة بالدين، فإن مشيت على مثل حد السيف لترضي كل هؤلاء خرجت بقطعة أدبية مرقعة الثياب لا يعرف لها نهاية من بداية، وإنما هي كلمات أتعبت ذهنك في تقليبها على كل وجه حتى تأمن مداخل هؤلاء وأولئك؛ فإذا فعلت ذلك خرج عليك من حيث لا تحتسب من يقول: لقد جبنت أن تقول ما في نفسك، ونحن أعلم منك بما يختلج في صدرك.

وإن الأيام لتجيبني كلما أتعبت نفسي وقلمي في

تدبيج مقالة أو قصة، ثم بعثت بها إلى صحيفة فنشرت وقد تفضل الطابع بالتنغيص على كل جملة باغتيال كلمة وعلى كل كلمة بخرق حرف أو خنقه.

وإنها لتجيبني كلما أعددت كتابًا للطبع ثم تقدمت به إلى دار نشر فطلبت مني ما لا أطيق، ثم لما أطقته رغمًا عني، طلبت مثله مقابل التوزيع.

وإنها لتجيبني كلما سمعت سفيهًا يتطاول على قمة من قمم الفكر أو الأدب لأنه سمع من آخر أنه يرى رأيًا غير رأيه في مسألة من المسائل.

وإنها لتجيبني كلما رأيت ذا مال فارغ الرأس يتقدم ذا علمٍ وأدبٍ لأنه فارغ الجيب.

لم يقطع هذا السيل الهادر من الشكوى إلا إعلان إقلاع الطائرة، فاعتذر مني لأنه تكلم نيابة عني، قلتُ لا عليك فكأنما تحدثت بلساني وودعته، وما زلت أقرأ بين الحين والحين بعض نفثات صدره في الصحف والمجلات.

ثقافة الشارع(*)

في ردهة الفندق كان يجلس أمامي يأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته ثم ينفثها من فمه وأنفه بينما كنت أتصفح الجريدة تارة ويأخذني الفضول تجاهه تارة أخرى، يلبس ثوبًا أبيض ناصعًا، ويدحرج نظراته خلف المارة داخلين أو خارجين، وقد وضع أمامه على الطاولة نظارته الشمسية وهاتفه (المحمول) وعلبة السجائر وكوب الشاي الذي جعل منه فاصلًا بين أنفاس دخينته، كان الأمر يبدو بالنسبة إلي محايدًا، إلى أن سمعت مقطوعة موسيقية يصدرها هاتفه، وبعد أن ملأت الموسيقى الغربية الآذان، مدَّ يده وتناول الهاتف، وبدأ يتحدَّث إلى الطرف الآخر بصوتٍ عالٍ، تتخلله ضحكاتٌ مدوية. لم يكن لي خيارٌ في سماع كلامه، وكنت من خلاله قادرًا على توقع ما يقوله الطرف الآخر، وإن لم يكن للحديث موضوع محدد:

- هالو.
- . . .
- أهلًا وسهلًا، لماذا لم تأتِ أنا في انتظارك؟!

(*) 2000م.

- . . .
- (أفكورس) لن أتحرك حتى تأتي.
- . . .
- يبدو أن (البيروقراطية) تعشش في إدارتكم أيضًا.
- . . .
- أنت تعرفني (رومانسي) أكثر مما يجب.
- . . .
- أنتم أيها (البرجوازيون) لا تحترمون أحدًا.
- . . .
- لا أستطيع التأخر عن العمل فالمدير (سادي) في التعامل مع المتأخرين.
- . . .
- (فري) يا أخي (فري).
- . . .
- سأصاب (بالشيزوفرينيا) لو فكرت بطريقتك.
- . . .
- كانت أيامًا جميلة، لقد كنتُ حينئذ (دونجوان الحارة)
- . . .
- لا تكرر هذا الكلام فهو معدود ضمن (التابو) في مجتمعنا المحافظ.
- . . .

- لا بأس سأتصل بك عبر هاتف صديقك بعد المغرب، أملني الهاتف لو سمحت.

التفت إليَّ وأنا أبادله بنظراته نظرات الاستغراب لهذا السرد المتكلَّف، للمصطلحات والمفردات الأجنبية، فقال:

ممكن تكتب لي هذا الرقم؟!

مددت له يدي بالقلم ليكتب ما يريد، ولكنه أشار إليَّ برأسه قائلًا: أكتب فأنا لا أجيد الكتابة.

على رصيف الحياة(*)

تعوَّد أن يعرِّج صباحًا على المخبز الذي يتوسط الحي ليحصل على الرغيف الذي يقدمه له صاحب المخبز كل صباح، دون أن يمد يده فيما يشبه الميثاق النبيل، ليختم بذلك مخاوف ليله، ويبدأ به يوم بؤسٍ جديد.

لا يطلبُ من أحدٍ شيئًا ولكن مظهره ينبي بعض المحسنين فيقدمون له مالًا قليلًا أو طعامًا، فقد عرفه أهل الحي بائسًا لا محتالًا، تتقاذفه الأرصفة، يرى كلَّ شيءٍ من حوله ولا يكاد يراه أحد، يذرع الشوارع بخطواته الذاهلة لغير هدف، ويسعى لغير مسعى، يحمل صُرَّته التي احتوت كل مقتنياته، تتناوبه الأرصفة والحدائق، وأبواب المساجد ومداخل الأسواق، ليستأنف بعد ذلك رحلته التي بدأها منذ أربعين عامًا عندما ترك الجندية ليصبح زبونًا دائمًا للمبصرين والمحتالين، وبمرور الأيام يزداد رصيده من الوهم، وتتزاحم الحجبُ والتمائم حول عنقه وتحت إبطيه، ومع كل هذا يضيق ذرعًا بمنظر التلاميذ وهم يحملون كتبهم غادين

(*) 2000م.

أو رائحين من مدارسهم؛ فالكتب أوكار السحر وسلاح الساحرين.

تمضي أيام دون أن يكلِّم أحدًا حتى إذا أنس بإنسانٍ ـ وقلما يأنس ـ لم ينفك يتحدَّث حتى يملَّه جليسه قبل أن ينفد مخزونه من الكلام، الذي يدور في أكثر الأحيان بين ذم الناس عمومًا وشتم النساء، فهو يردد دائمًا: الشيطان امرأة، وكل امرأة شيطان، فالنساء وراء كل بلاء، ومع هذا فكلما رأى امرأة تعبر الشارع زعم أنها قالت له يومًا (هيت لك) ولكنه استعصم.

خلال عقود هجرته الأربعة تغيرت أشياء كثيرة ولم يتغير فيه سوى لون لحيته التي يتسلى بمداعبتها كلما استغرق في التفكير.

عندما تُحسنُ إليه تبعث دعواته في نفسك الطمأنينة؛ ويقف شعرُ رأسك ذعرًا من دعواته عندما لا تعجبه لسبب أو لغير سبب.

أربعون عامًا قضاها على رصيف هجرته يذرعه جيئة وذهابًا منتظرًا القطار، الذي يرى أنه أخذ كلَّ الذين أحبهم، وتركه على الرصيف أربعين عامًا، تمر به لياليها ثقيلة طويلة، والمحيطون به يمعنون في زيادة مرارتها. منذ زمن انصرف عن حديث الناس ليستجمع ما تبقى في ذاكرته من مفردات الذم والشتم ليفرغها على الرصيف وأهله مع تلويحة الوداع.

اللوحة(*)

كانت تتراقص وهي تضع اللمسات الأخيرة على لوحتها الورقية التي تحولت إلى مهرجان للألوان، اختلطت فيها الأشجار والأزهار والفراشات والعصافير. على غير عادتها لم تغلق ألوانها المائية، فقد أنستها البهجة كلَّ شيء، لم تكن تسير إلى أبيها بل تقفز كفراشة من تلك التي رسمتها في لوحتها.

ـ أبي. أبي. ما رأيك في رسمتي؟!

ـ الله. الله. قالها وهو يحاول أن تلمح الدهشة ومعاني الإعجاب على وجهه. نقلت نظرها مرات بين وجه أبيها ولوحتها ثم نظرت إلى أبيها تستحثُّه كمتهم ينتظر الحكم له أو عليه.

لم يُصدر حكمًا بل وضع اللوحة إلى جوار كتابه الذي وضعه توًا ليتأمل اللوحة وصاحبتها. احتضنها وقبلها وهو يضحك بسعادة وحنان قائلًا: رائعة. رائعة. سأصنع لها إطارًا وأُعلقها في مكتبتي. هل تسمحين؟

(*) 2000م.

ـ طبعًا، ولكن بعد أن تراها أمي.

ـ لا بأس عندما تستيقظ أريها، ثم أعيديها إليَّ لأصنع لها الإطار.

حملت لوحتها إلى غرفتها، كأم تحمل صغيرها في حنان، أضافت بعض الخطوط والألوان، نظرت إلى اللوحة من زوايا متعددة، أسندتها إلى الجدار وابتعدت خطوات ثم نظرت إليها؛ تبدو جميلة. لم تحتمل قسوة الانتظار، حملت لوحتها إلى غرفة أمها، وقفت عند رأسها.

ـ ماما. ماما.

رفعت الأم رأسها، التفتت إلى ابنتها.

ـ خير؛ ماذا تريدين؟!

ـ ما رأيكِ في رسمتي؟!

تناولت اللوحة ـ بحنق ـ كورتها بين يديها، قذفتها ناحية الباب.

ـ أعوذ بالله، تزعجينني من أجل هذه الشخابيط؟!!

سارت باتجاه اللوحة المهشَّمة، التقطتها بكلتا يديها، وخرجت من غرفة أمها في صمت رهيب.

عادت إلى أبيها تحمل اللوحة المكورة التي تشبه قلبها الصغير، وقد تحدَّرت الدموع على خديها. أخذ اللوحة منها؛ وبينما كان يعالج التجاعيد التي شوهت اللوحة الصغيرة. كان يفكر كيف يرمم نفس صغيرته، ويعالج كسور قلبها.

انسحاب(*)

لم يفكر يومًا بطريقة من حوله، مع أنه يدرك تمامًا كيف يفكرون، معتدٌّ بذاته حدَّ الغطرسة، ظالمٌ لنفسه حدَّ الشفقة، يملكه قلبه الذي فطَّره الحب، وسكنه المساكين، ولأنه لم يعرف الطمأنينة؛ يمتلكك شعور بعدم الطمأنينة وأنت تتحدَّث إليه للوهلة الأولى، وشعورٌ بالرهبة وهو يحدثك عن نفسك بما لا تكاد تنكر.

يسيء به الناس الظن، حتى لتراه وقد غدا مرمى لسهام تطلقها ألسنتهم التي جعلوها وترًا لقوس كلماتهم الجارحة؛ ربما لأنه لم يكن ممثلًا جيدًا على مسرح الحياة.

ليس من داعٍ لبذل الجهد لإقناعه بما لم يقتنع به من تلقاء نفسه، وليس بينه وبين أن يقول كلمته إلا أن يقتنع بأثرها، هكذا رضي به الذين عرفوه.

يكره القيود، كلَّ القيود، فنذر عمره للفكاك من ربقتها، ومع هذا فهو يعلم أن الحياة لا تتسع للحرية التي ينشدها. عاشقٌ للجمال حدَّ الوله، عندما يثق بصدقه وأصالته، يراه بعين ذاكرته الشفيفة، مهما رآه الآخرون

(*) 2001م.

عتيقًا.

بنفسٍ لوَّامة يعترف بمقارفة بعض الخطايا، لكنه يؤمن أن ربه يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب وآمن.

أَلِفَ محبوه تلك الدمعة الحائرة تطل من مقلتيه كلما حزن أو فرح أو تذكّر، وعندما ينتظر الناسُ الغد يتراءى له الأمس، فمن لم يحسن عيش أمسه ويومه ليس جديرًا بغدٍ أجمل، وحين يحدثك عن الفقر صديق طفولته تتيقن أنه لم يعد يخيفه. ينتقل بك إلى الموت الذي جرَّبه حتى لم يعد يراه سوى فاصلةٍ بين جملتين.

لطيبته المفرطة يصدمك بحدة غضبه، وقوته حين يريد، ثم تعجب لضعفه أمام ذاكرته وقلبه، فتستعبده الكلمة الطيبة، فلا يرضى إلا أن يكون محسنًا لا مكافئًا، ولكنه لا يؤمن بمبدأ (اتق شر من أحسنتَ إليه) فكان موضع نقمة كثير منهم.

مـريـم(*)

ذات صباح مختلف اقتحمت عيني (مريم) عشرات الوجوه، وجوه صغيرة مستديرة تشبه وجهها البريء، ووجوه أمهاتٍ ومعلمات يسرنَ بكل اتجاه، صغيرات يتمسكن بأيدي وثياب أمهاتهن ويسرنَ خلفهن وأمامهن.

انكمشت (مريم) على نفسها بجوار جدتها العجوز، كانت تتساءل في داخلها لماذا لا تأتي جدات الصغيرات معهن مثلها، ولكن السؤال يلدُ سؤالًا آخر فتسأل جدتها:

ـ لماذا أمهات البنات لم يمتن مثل أمي؟!

ـ أسكتي يا بنتي؛ قالتها الجدة وهي تمسح عينيها، فلم تكن دموعها تستأذن كلما قذفتها الصغيرة بأسئلتها الكبيرة.

ـ يا جدتي أريد أن ألعب مع الصغيرات.

ـ ليس الآن يا بنتي.

ـ فمتى؟!

(*) 2001م.

ـ عندما تنادينا المعلمة.

ـ هل ستلعبين معي؟!

ـ طبعًا يا بنتي.

أخذت (مريم) بيد جدتها تشدها إلى ميدان اللعب، مع الصغيرات والأمهات والمعلمات؛ استسلمت الجدة لإلحاح الصغيرة.

أخذت تلاعب صغيرتها والصغيرة تضحك وتلعب، والجدة تبكي، ثم تحينت غفلة من الصغيرة لتنسحب إلى مقعدٍ مجاور، وقد امتزجت (مريم) بالصغيرات.

على عتبة بيت مهجور(*)

دقائق تمرُّ عليه مغمض العينين يستعيد مشهدها وهي تطلُّ برأسها الملفوف بشالٍ أسود على عتبة بيتٍ مهجور، وخصلة من شعرها الأسود تلامس بياض خدها، أطلَّت مائلة من باب بيتٍ يعرفه تمامًا، ليته رآها في غير هذا البيت المهجور، ليعيش زمنًا يرقب موعد القطاف، أطلَّت بوجهها الملائكي. أخذته الوساوس، فلم تعرف بيوت قريته هذا الجمال.

هذه ليالٍ ثلاث تمضي ولم تفارق صورتها خياله، ليتها سارت نحوي خطوات، ليتها كلمتني، ليت حلمي طال قليلًا، لقد أحس أنه يزرع بذور الأمل في رمال مفازة قاحلة ويسقيها من سراب أحلامه، لقد رآها في المنام فمتى تجود بمنامٍ آخر. هكذا عاش لياليه يزرع صورتها بين أهدابه ثم يغمضُ عينيه، وعندما يندلق الضوء من شقوق النوافذ، يفتح عينيه على خيبة أمل جديدة.

لم يجرب الحبَّ من قبل. فهل يقع في حب فتاة لا

(*) 2001م.

وجود لها إلا في خياله، يكاد يشعر بدفء أنفاسها، ويلمس جمالها الذي لم يرَ مثله، لم يبدُ عليها أيُّ انفعال، ولكنه بالتأكيد منام!

ترى أيحب الإنسان فتاة (وهمًا) رآها في منام، سأل نفسه. ترى هل رآها أحدٌ غيري، لا لن تنظر إلى غيري، إنها أطهر من أن تطل على غيري حتى في المنام.

وتمر السنون ويبقى الأمل، وتمر سنون ويذبل الأمل، وتمر سنون ويمر طيفها في صحواته، أما المنامات فقد أمست كوابيس، يستيقظ مفزوعًا فيتأمل فصول حياته بحزنٍ، ليضم أحزانه الجديدة إلى حسراته القديمة، ثم تمر دقائق عليه مغمض العينين يستعيد مشهدها وهي تطلُّ برأسها الملفوف بشالٍ أسود على عتبة بيتٍ مهجور، وخصلة من شعرها الأسود تلامس بياض خدها.

وجوه بلا ملامح(*)

ليس هناك ما يبرر رحيلك المفاجئ، قلت له محاولًا ردَّه عن عزمه. قال وهو مشغول عني بجمع متاعه: هل تستطيع أن تعيش محاطًا بوجوه صخرية لا ملامح لها، فتقبع خلف قضبان تلك العيون طوال حياتك.

ـ ما علاقة هذا بتخليك عن الموقع الذي تعمقتْ فيه جذورك، وبسقتْ فيه فروعك؟!

ـ لقد بقيت حبيس تلك الوجوه الجدارية سبع سنوات عجاف، حتى استوت عندي الحياة واللاحياة، فاخترت البحث عن الحياة هناك على اللاحياة هنا، إن هذه الجذور التي تتحدَّث عنها قيودٌ تشدني إلى الهاوية، وتلك الفروع أسوارٌ تكاد تخنقني.

ـ هذه أوهام تزين بها لنفسك صنيعك، دون أن تحسب حسابًا للقادم من أيامك، التي ستقضيها ورياح المجهول تغدو بك وتروح.

(*) 2001م.

ـ إن المجهول يتسع لي إذ لم يعد المعلوم يتسع إلا لتلك الوجوه.

ـ إني لا أفهم عمَّ تتحدَّث!

ـ لأنك لم تكتوِ بنار تلك الوجوه الرمادية.

ـ أي وجوه تلك التي تُحَمِّلُها كل هذه الصفات؟!

ـ ما أبغض الحياة المسكونة بتلك الوجوه، فوجهٌ يستقبلك بابتسامة تبدي صفرة نواجذه، وبعد أن تسمع منه ما لا طائل فيه، تفارقه وقد آذى سمعك بحشد مثالب الذين غادروا المكان توًا، وقد رصد من مثالبك ما يحدِّثُ به القادم بعدك، يكذب ويغضب إذا لم تصدّق كذبته.

ووجه رقيق لطيف بريء خَضوع أمام رؤسائه، وأمامهم تُقرِّب الابتسامة ما بين أذنيه. مقطِّبٌ متعالٍ ساخرٌ مع مرؤوسيه، خبيثٌ متحاملٌ مع أقرانهِ، يتقلَّبُ حسب مصلحته من أي جهةٍ هبَّتْ رياحها، أعداؤه كل الذين يحتاجون إليه، وأصدقاؤه كل الذين يحتاج إليهم، يرجو مصلحةً فيكون لوحةً زاهية، ولا يرجوها فلا تُبينُ له لونًا.

ووجهٌ مقنَّعٌ بسِمَاتِ التدين يأكل الدنيا باسم الدين، تَخِذَ الدينَ جسرًا لتحقيق مآربه، وجعل منه شِبَاكًا يصيد بها رزقه.

لم يعد بوسعي احتمال تلك الوجوه؛ سأترك المكان سعيدًا بقراري.

ـ ولكن إلى أين؟

ـ إلى حيث أجدُ وجوهًا ذات ملامح.

ـ ولكن. (قاطعني)

ـ إلى اللقاء يا صديقي.

الضحية(*)

كما يُطلُّ الجزار على حظيرته ليختار خروفًا فيأخذه إلى موعده المحتوم؛ أطلَّ مدير المدرسة على طلاب الصف الرابع فالتفتوا جميعًا إلى الباب بعيونهم البريئة يحدِّقون بكل اتساعها نحو هيئة المدير تاركين معلمهم وسبورته التي أكثر عليها الرسومات والتعليقات.

سلَّم ثم أخذ يقيس التلاميذ بنظراته، وهم يُحدجون فيه ليستوعبوا قامته المديدة.

ـ قفوا يا أولاد. قال لهم.

وقف التلاميذ، بينما هو يجول بين صفوفهم ويقيسهم بنظراته من جديد، لم يكن كالجزار؛ فالجزار ينتقي أضخم كبش في الحظيرة، أما هو فقد كان يبحث بين التلاميذ عن أصغرهم، لم يكن بحاجة إلى فطنة ليعرف أن ذلك التلميذ الذي يقتعدُ كرسيًا بجوار النافذة أصغر طلاب الصف حجمًا، ثبت نظر المدير عليه، أخذت نبضات قلبه الصغير تضطرب، تعلو، تنخفض، ترى لماذا ينظر إليَّ هكذا؟! عاد

(*) 2002م.

بذاكرته ليتذكر ما الذي اقترفه في الفسحة؛ ترى ماذا فعلت؟! لعله رآني عندما ألقيت علبة العصير من النافذة، سيعاقبني أمام زملائي؛ علتْ خديه حمرة، عيناه تتحركان دون إرادته، ينظر إلى الأرض، ينظر إلى وجه المدير، إلى عينيه الباديتين من خلف نظارته ذات الإطار الأسود، جفناه ينغلقان، يفتحهما، ينغلقان. نظرة استغاثة وتساؤل تجاه معلمه، دمعتان حائرتان لم تجدا مبررًا كافيًا لتبرحا محجريهما وقد أوشكتا.

ـ ما اسمك؟ سأله المدير

ـ أنا؟!

ـ نعم أنت.

ـ اسمي. اسمي أحمد.

ـ أحمد ماذا؟!

ـ أحمد عبد الله.

ـ خذ حقيبتك وتعال يا أحمد..

أما الآن فقد آن للدمعتين أن تبرحا محجريهما، قفزتا دون عناء، وتبعهما سيل من الدمع على خدين متوردين. شعر بصخب اللحظة يملأ رأسه برغم الصمت الرهيب الذي احتوى المكان، صمتِ المعلِّم، وصمتِ التلاميذ، وصمتِ كلِ شيء. حدَّث نفسه مؤنبًا: كان يجب أن أضع علبة العصير في سلة المهملات، أمي تنبهني لذلك دائمًا، لن

أفعلها ثانية، سار بخطواته الصغيرة المتلاحقة خلف المدير، ترى إلى أين سيأخذني؟! طريق الإدارة ليس من هنا، شعر أن البرد يتسلل إلى أطرافه، بينما ملأت نفسه المخاوف والتساؤلات.

على باب الصف الثالث، وقف المدير ومن خلفه (أحمد) بينما لزم (أحمد) عتبة الباب، سار المدير داخل الفصل خطوات قائلًا للتلاميذ ومعلمهم: لقد رأينا أن يدرس (أحمد) مع زملائه في الصف الثالث ليتقوى في تلاوة القرآن الكريم، والرياضيات.

حاول (أحمد) أن يتذكَّر سببًا لهذا القرار الغريب فلم تسعفه ذاكرته، أشار إليه بالجلوس على مقعدٍ فارغٍ في آخر الصف، جلس غريبًا حزينًا مشدوهًا ودموعه الصامتة ترسم خطين على خديه الشاحبين، فكر بحزنٍ عميق في زملائه الذين عرفهم وألفهم منذ سنوات. لم يكن خروفًا يُذبح فيستريح، بل كان كنبتة اجتُثت من تربتها وطمرت بتربة أخرى لا تناسبها فذبلت، وتألمت ولكنها لم تَمُتْ.

تبدَّدت حيرة (أحمد) وزادت دهشته عندما عرف ـ بعد فوات الأوان ـ أن المدير سرقَ من عمره سنة ليصبح ممكنًا قسمة الصف الثالث إلى فصلين متكافئين في العدد.

شيخوخة قلب(*)

بجوار الشرفة المطلة على الحديقة، كان يقضي وقتًا أمام المرآة يتأمل وجهه كل صباح. أطلت بادئ الأمر على استحياء، لكن حياءها أخذ يتضاءل شيئًا فشيئًا، حتى بدت أمامه بكامل زينتها، وكأنها تزهو ببياضها الذي تزيد العتمة من حوله سطوعًا، أخذت تتعرض له كلما وقف أمام المرآة؛ بإصرار يشيح بوجهه كلما انتصبت بقامتها الرشيقة أمامه، كان يعلم أن زوجته ستسيء به الظن لو لمحتها، ذات صباح مختلف أطال النظر إليها، تأملها من جميع الجهات، كانت تبدو جميلة إلا أنها كانت مخيفة إلى حدٍّ أنه شعر أنه يكرهها، وبعد قليل أشفق عليها وترفق، فلم يزدها حلمه إلا تمردًا، قرر أن يكسر جموحها ولكنه تردد عندما رأى أختها تطل من خلفها ترقب مصيرها.

مضت أيامٌ وهو يفكر فيها، اعتبرها نقطة تحول في حياته ولم ينسَ أختها التي زادت حيرته، حاول تصفُّح سنوات عمره الثنتين والثلاثين، فلم يجد لصخب الطفولة موضعًا، ولم يجد لزهو الشباب أثرًا، ووجد مكانهما القلق

(*) 2002م.

والترقب، وخوف القادم، والانكسار والنقمة وعدم الرضى، عند ذلك تذكر أن هاتين الشعرتين البيضاوين تكشفان الغطاء عن قلبه الذي شاب منذ زمن.

هو.. والرحيل(*)

ليس من عادته أن يتأمل الأسماء التي تحملها لافتات المحال، فهو قلما يرفع رأسه عن موضع قدميه، ثم هو يعتقد أنها كلمات فارغة من المضمون، أودعها أصحابها ما فقدوا من قيم.

ولكنه قبل أن يدلف الصيدلية التي قصدها لشراء الدواء الذي وصفه الطبيبُ لابنه الرضيع لمح لافتة تعلو باب الصيدلية مكتوبٌ عليها (صيدلية الرحيل) وقف قليلًا يتأمل الأدوية بنظرات مترددة، ويقلِّب نظراته في وجوه الداخلين والخارجين، ثم خرج سائرًا باتجاه سيارته، ركب وقبل أن يُغلق باب السيارة بادرته زوجته:

ـ أين الدواء؟ كعادتك تشتري الأشياء، ثم تنساها بعد أن تدفع ثمنها.

ـ لم أشترِ شيئًا.

ـ ألم تجده؟

ـ لم أسأل.

(*) 2002م.

ـ فلم دخلت الصيدلية إذًا؟!

ـ اقرئي اسم الصيدلية تعرفي السبب.

ـ صيدلية الرحيل. وماذا يعني؟!

قال وهو يدير محرك السيارة:

ـ يكذبون فيكتبون (صيدلية الشفاء) فنرضى ونتظاهر بتصديقهم، أما أن تُسمى (صيدلية الرحيل) فهذا الصدق الذي لا أحتمله.

ـ لم يعجبْكَ الذين يكذبون، ولا الذين يصدقون!

ـ أنتِ تعرفين أنني أكره الرحيل ولو إلى المدينة التي يفصلنا عنها ساعة أو ساعتان. فقد اكتويت بنار الرحيل مبكرًا، عندما فارقت أمي وإخوتي للدراسة.

ـ ولكن الرحيل حقيقة لا مناص منها.

ـ لهذا أكره الرحيل، وليس بوسعي أن أُضيف إلى رصيد الذي يذكرني به، ريالًا واحدًا. هذا الذي أستطيعه، ولو كان بيدي لأجبرته على تغيير اسم صيدليته.

ـ اشترِ الدواء، ودع عنك اسم الصيدلية.

ـ سأجده في صيدلية أخرى.

ـ فإن لم تجد؟

ـ خيرٌ من أن يتجرع ابني دواء الرحيل. قالها وهو يرقب الشارع يمينًا وشمالًا لعله يلمح صيدلية أخرى.

آلاء(*)

لم تكن زيارته مفاجئة لعاصم، فهو الصديق الحميم منذ الطفولة، ولكن تفرقت بهما طرق الحياة منذ سنوات عندما غادر القرية للعمل في المدينة، غير أن كلًا منهما يحتفظ للآخر بودٍ قديم متجدد، تجدده اللقاءات والاتصالات، جاء برفقة حامد ابنه الطبيب المتخرج حديثًا في كلية الطب، رحب بهما عاصم وعيناه مشرعتان بفرحة اللقاء، دار الحديث حول الأخبار والأقارب، والصغار والكبار، والذكريات وطرائف الطفولة.

عدَلَ حامد جلسته وأخذ يتحدَّث بشيء من الرسمية، أرهف عاصم لحديثه السمع بينما اندفع كعادته يمهد لموضوعه بمجموعة من المقدِّمات.

ـ هذا (خالد) أكبر أولادي، وهو ناجح في عمله والحمد لله، ولن نجد له أبًا ثانيًا أفضل منك يا عاصم، ولن يجد شريكة لحياته أفضل من بنتك (آلاء) ولهذا جئنا اليوم نطلبها منك.

(*) 2002م.

ـ أهلا وسهلًا، وأنعم بخالد، ولكن آلاء صغيرة على الزواج.

ـ ما أعرفه أنها تجاوزت الثامنة عشرة!

ـ تقريبًا. تقريبًا. ولكن أقصد أنها لم تتم دراستها، ثم هي بنتي الوحيدة، مع أخوتها الثلاثة.

ـ وماذا يعني ذلك؟ تتم دراستها مع زوجها، أنا ألتزم لك بذلك.

ـ الحقيقة لقد فاجأتني، فلم يخطر ببالي أن يأتي اليوم الذي ينتزع فيه أحدٌ (آلاء) مني.

ـ إنها سُنَّةُ الحياة يا عاصم، وإذا لم تتزوج خالدًا فستتزوج غيره.

ـ هذا ما يؤلمني. إنها لن تجد أفضل من الدكتور خالد.

ـ خالد: سأكون عند حسن ظنك، إن شاء الله يا عمي.

ـ حامد: إذا لم يكن عندك مانع فاعرض الأمر عليها وعلى أمها، وسنعود قريبًا لمعرفة الرد.

ـ عاصم: خيرًا إن شاء الله. قالها وهو يودعهما محاولًا إخفاء ارتباكه، بينما كانت تساور حامدًا شكوك في هذا الفتور الذي تلقى به عاصم طلبه، فقد كان متأكدًا أن

عاصم سيفرحه أن يتقدَّم لبنته شابٌ كخالد، إلا أنه برغم شكوكه لم يبُح لابنه بشيء.

عاد عاصم بعد توديعهما إلى مكانه تضطرم في داخله العواطف والانفعالات، وهو يتأمل اللوحة المعلقة في صدر المجلس، نهرٌ جارٍ وأفق بعيد وطائرٌ وحيد يقف على غصن شجرة لا أوراق لها، بدت اللوحة متداخلة وهو ينظر إليها من خلال دموعه المترقرقة، أخذ يتمتم: كم أنت رائعة ومبدعة يا آلاء، لوحاتك تزين كل جدران البيت، وأنت أجمل لوحة تزينت بها حياتي، هل ستتزوجين وتتركيننا؟! تذهبين إلي بيت رجلٍ آخر وتدعين بيت طفولتك وصباكِ؟! أين ستذهب شقاوتك الطفولية وقد أصبحتِ عروسة، وربما أمًا؟! كيف سيكون حالنا بعدكِ؟! لكِ الله يا أم آلاء ستبقين وحيدة. قطعت آلاء وحدة أبيها، وقد دخلت بخطواتها المتسارعة كعادتها، أخذت مكان اللوحة في عينيه ينظر إليها من خلال دموعه، وهي تجمع كاسات الشاي والقهوة بعد الضيوف.

الحديد والنار والأسمنت(*)

في أعماق وادٍ سحيق تختبئ القرية الخجول، خلف الجبال لعلها تحول بينها وبين أسباب الحضارة التي لا تعطي القليل إلا لتأخذ الكثير.

ذات عام غابر تسللت إلى القرية مدرسة ابتدائية، فتوجست خيفةً من هذا الكائن الغريب الذي يتقاطر إليه الصغار قبل أن يحدث العناق الأزلي بين الشمس وسفح الجبل، وقد هجروا معلِّم القرية وإمامها الشيخ عيسى.

بشيء من الدهشة نظرت القرية إلى أُولئك الغرباء القادمين لتعليم أبنائها بوجوههم الفاتحة وملابسهم الغريبة ولهجاتهم غير المفهومة، أَلِفَ بعضهم القرية بتوجسها وسكونها بينما لم يُطِقْ آخرون الحياة بمعزلٍ عن الحياة كما يزعمون.

لم تكد القرية تُفيق من دهشتها حتى رأت بناتها الصغيرات يتجمعن كل صباح على عتبة مبنى المدرسة الذي يتوسطها، بناتها اللائي كنَّ يرعين ويمرحن في

(*) 2002م.

جنباتها، ومنذ عرفن طريق المدرسة لم تعد أقدامهن تجول في طرقاتها وحقولها، فقد انحصرت خطواتهن بين بيوتهن والمدرسة، ولم تفق القرية من دهشة مدرسة البنات ولم تكد.

يومًا بعد يوم يتأكد للقرية أنها تتهيأ لنازلة ولكن أهلها لا يشعرون. ومع هذا فقد أَلِفتْ بعض القادمين إليها ولم تألف آخرين؛ أَلِفتْ بعض الذين ألفوها وكلَّ الذين أحبوها، ألفتْ المعلِّم الذي يقتعدُ سطح المدرسة يكتب الرسائل لزوجته وأطفاله، ويقرأ بدموعه رسائلهم، ألفتْ تلك المعلمة التي استوطنت قلوب الصغيرات وامتد حبها إلى قلوب نساء القرية، ألفت الطبيب وزوجته الممرضة اللذين لا يعرفان للعلاج زمانًا ولا مكانًا؛ زمانه عندهما كلما تألم صغير أو كبير من أهل القرية، ومكانه حجرة الطبيب أو بيته أو بيت المريض وربما مزرعته أو مرعاه.

تتجه القرية الخجول بكل حواسها وجنباتها وطرقاتها وبيوتاتها الصغيرة نحو المسجد، كلما نادى الشيخ عيسى للصلاة تسيل الطرقات بالمصلين كبارًا وصغارًا يصطفون خلفه في خشوع، بعد الصلاة يتحدثون قليلًا أو كثيرًا، يتشاورون، يتمازحون وربما يختصمون، ثم ينهمكون في أعمالهم حتى ينادي الشيخ عيسى للصلاة من جديد.

ذات يوم استيقظت القرية على صخب لم تتعوده، صوت آلات تخترق سكونها، وتقطع الوادي، وتجترح

الجبل شرقي القرية، أخذ الجبل الأشم ينزف صخورًا متكسرة وترابًا ليعلو الغبار، بينما مايزال الجبل واقفًا، رغم قسوة الآلات التي تخترق جسده الصلب، يجتمع الرجال والنساء والأطفال يرقبون ما يحدث مجللين مع الغبار بسحب الدهشة.

قال أحدهم: إنهم يحفرون نفقًا في الجبل، لقد رأيت مثل ذلك عندما ذهبتُ إلى الحج، إن الأمر يبدو لنا مستحيلًا لكنه ممكن بهذه الآلات التي صنعها الكفار. هم بالتأكيد يريدون أن يربطوا مدينة الشمال بمدينة الجنوب بطريقٍ يخترق هذا الجبل، لقد سمعتُ شيئًا من ذلك.

قال آخر: وقريتنا؟!

قال الشيخ عيسى: ستكون ضحيةً لهذا الطريق.

وتمضي السنون، وتتحقق نبوءة الشيخ عيسى، وذات فجر تجمعت الصبايا اللائي كنَّ بالأمس على عتبات المدرسة الجديدة، تجمعن كعادتهن في رحلتهنَّ اليومية إلى كلية البنات في مدينة الشمال، رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر، النوم ما زال يُداعب أجفان بعضهن، وأخريات قد نفضن غبار النوم على الوسائد.

في الحافلة الصغيرة التي تأخذهن إلى مدينة الشمال؛ تلتحم أحاديثهنّ الكسولة بآمالهنّ، ضحكاتهنّ ونكاتهنّ بشكواهنّ، بينما تغذّ الحافلة السير في طريق متقلِّب الوجوه.

خلال هذه الرحلة تنوعت هموم البنات، إحداهنَّ

نائمة تعودت أن تستثمر وقت الطريق في النوم العميق، وأخرى قد شغلها همُّ الامتحان، فهي تفتح الكتاب فتقرأ، تشعر أنها لم تستوعب، فتعيد القراءة، تغلق الكتاب؛ تحاول استرجاع ما قرأت، تفتح الكتاب ثانية. ثلاث فتيات متجاورات يتحدثن؛ يتضاحكن، ثم لا يلبث أن يقطع الحياء تلك الضحكات، ثنتان تتهامسان، أخرى تتأمل الهدايا التي أعدتها لمكافأة الصغيرات اللاتي يتفاعلن معها في درس التطبيق، تَعِدُّ الهدايا، ترتبها حسب قيمتها، تعيدها إلى الحقيبة، ينشغل سائق الحافلة الخمسيني عنهن بمتابعة الإذاعة، يبحث عن الأخبار، وربما لم تعجبه، فاستمع إلى تلاوة أو محاضرة مسجلة.

تخترق الحافلة هدوء القرية، تنحدر من سفح الجبل لتبلغ الوادي، وقبل أن تلتحم بالطريق العام كانت طاقات الورود الثمان تتأبطن حقائبهن البُجْر بالكتب والمذكرات والآمال والأحلام، مسكونات ببهجة جديدة ليومٍ جديد، تنوعت الآمال والأحلام وبهجة الصبا واحدة.

في طريق البحث عن نور المعرفة، لم يكن في حسبانهنَّ أن شبح الموت يتربص بهن على بوابة النفق، وقبل أن يزهو في عيونهن الأفق، ويا لروعة اللحظة، تسقيهن شاحنة الموت بكأسها شرابًا غير سائغ، لتصطك تلك الأحلام بإرادة القدر، فيقضين محاصراتٍ بين الحديد والنار والأسمنت.

العافية(*)

بعد خمسة أيام وبعد غيابها الطويل أشرقت الشمس من جديد، بدأتُ أتنفس هواءً نقيًا، افتقدته خلال الأيام الخمسة، بدأت الألوان تأخذ شكلها الطبيعي، اللون الأزرق الذي تتزيا به السماء بدأ يتشكل من جديد، خضرة الأشجار عادت إليها بعد أن كانت باهتة لا لون لها، يبدو لي أن مذاق الشاي عاد حلوًا سائغًا كما كان قبل خمسة أيام، عادت إلى كتبي قيمتها، بعد أن هجرتها واجتويتها حتى لم يعد بوسعي قراءة صفحة واحدة. أتصفح الجريدة اليومية في عجالة لا تكفي لقراءة زاوية واحدة، ثم ألقيها جانبًا وقد تفلتت أوراقها.

بعد صلاة الفجر شعرتُ برغبة في شم رائحة القهوة التي تعودتُ أن أستنشق رائحتها قبل أن أرشف منها رشفة، وأنا أقلِّب صفحات كتاب أو رواية أو ديوان.

دخلتُ المطبخ وبطقوسي المعتادة أعددتُ فنجان القهوة، وفي طريقي إلى المكتبة أخذتُ أشم رائحة القهوة

(*) 2002م.

تنبعث إلى نفسي قبل أنفي، آه كم هي منعشة؟ وجدتُ الغبار يكسو الطاولة وما عليها من الكتب والأوراق، نفضتُ الغبار وتناولتُ أوراقًا موضوعة في غير نظام. «يا الله.. لم يبق إلا يومان على موعد تسليم هذا الموضوع إلى المجلة، لا بأس فلديَّ من الطاقة ما يجعلني أنجزه في يومين». مع رشفات القهوة التركية، بدأت أصحح السطور الأولى لمقالتي، التي انتظرتني خمسة أيام في موضعها.

في السابعة صباحًا وصلت الصحيفة تصفحتها بهدوء، في السابعة والنصف أطللتُ من الشرفة لأرى الشمس وهي تلامس أكتاف الجبال، يا له من صباح بهيج؛ السماء زرقاء صافية، الأشجار خضراء زاهية، والأفق ممتد باسم، لبستُ ثيابي، ركبتُ سيارتي، وفي طريقي إلى العمل استمتعت بنسيم الهواء البارد يتسلل من نافذة السيارة، دلفتُ مكتبي وجدته أيضًا مكسوًا بالغبار، والأوراق مكدسة في غير نظام، فتحتُ النافذة وبدأتُ أنظم ما أفسدت الأيام الخمسة، وأنا أشعر بلذة العافية التي غابت عني خمسة أيام، نسيت خلالها بهجة الحياة.

وساوس(*)

وقف أمام المرآة يتأمل هيئته بعد أن لبس أنصع ثيابه، لم تعجبه غترته البيضاء، قرر أن يستبدلها بحمراء، الحمراء أكثر ثباتًا. أعاد ترتيب القصائد التي سيلقيها في الأمسيَّة، سأبدأ بهذه القصيدة، لا. لا؛ الأفضل أن أقدِّم مقطوعات قصيرة لأنتهي قبل أن يملَّ الحضور. ليتني أصل إلى مقر الأمسية وهيئتي كما هي الآن! ترى هل سيكون بين الحضور؟! لقد وعدني بذلك. سيحضر.

ـ يا وفاء. وفاء.

ـ نعم

ـ هاه. شكلي هكذا مناسب؟

ـ لماذا لم تلبس الغترة البيضاء؟

ـ ترينها أفضل؟

ـ طبعًا؛ أفضل!

ـ هكذا أفضل؟ قالها وهو يثبِّت العقال على رأسه.

(*) 2002م.

ـ أفضل بكثير. توكل على الله.

ـ توكلتُ على الله.

قال يحدث نفسه مزهوًا وقد اقتعد منصة الإلقاء: «في هذا المكان أضمن أن أراه في أي مكانٍ جلس. لقد وفى بوعده، إنه يجلس في الصف الأول؛ يتلفت إلى الحضور، وكأنهم قد جاءوا من أجله هو، لا يا صاحبي؛ لقد جاءوا هذه المرة من أجلي أنا، من أجل صديقك الذي يتفوق عليك بقدراته ومواهبه، في حين تفوقت عليه بمالك، لا بدَّ أنك تتمنى لو كنتَ مكاني، هذا المكان يا سيدي لا يُنال بالمال، إنه يُنال بالمواهب وبالمواهب فقط، لقد أنصفني الزمن هذه المرة، لقد وقف إلى جانبك كثيرًا، لقد اضطرني إلى الجري وراء لقمة العيش، لتصبح أنتَ كما أنتَ، بينما تُسفح مواهبي على عتبات الوظيفة. هذا الزمن هو الذي جاء بك اليوم إلى هنا لتنصت كما يُنصتُ الآخرون، وتسمعني كما يسمعون. هذه الليلة ليلتي، في حين تجلس أنت على هامش الصفحة التي أتربع في منتصفها».

كان المقدِّم يعرِّف بالشاعر الموهوب. «ها قد جاء الوقت لتسمعني، ترى هل سيعجبك شعري؟ لن أنشغل عنك بالإلقاء، سأقرأ قصيدتي في عينيك. سأقرأها في ملامح وجهك المتورِّد. رفقًا بكفَّيك من التصفيق، إنهما لا تحتملان هذه القسوة.

ترى هل تصفِّق إعجابًا بشعري، أم أنك تُصفِّق لنفسك

المغرورة، أنت الأجدر بالتصفيق؛ إن كنتَ فهمتَ ما أقول. ترى ماذا تريد أن تقول؟ عجيبٌ أن تكون أول من يُداخل في أمسيتي. حتى في أمسيتي تريد أن تخطف الأضواء مني، ألا يكفيك ما عندك من أضواء؟!»

بخطىً ثابتة تقدَّم نحو المنصة، ليقول: «لم أستطع إزاء هذا الشعر الجميل أن أكتفي بالاستماع، فوقفتُ لأشيد بهذه الموهبة الشعرية الفذة، ولأطلب من شاعرنا المُجيد، أن يتيح لي فرصة نشر هذا الشعر الجميل؛ بأن يأذن لي بطبع ديوانه الأول على نفقتي».

ـ شكرًا للأستاذ، كريم عرضه، ونبل قصده، وعندما يجتمع من شعري ما يصلح أن يكون ديوانًا، فيسرني أن يتولى طبعه.

قال لنفسه، وهو يصافح صديقه: «حتى شعري تريد أن يُطبع مذيلًا باسمك، لن أمنحك هذا الشرف».

(2)

قصص التابوت

دار بيسان ـ بيروت 2008م

مخاوف(*)

السكون يلف شقتها، قبل أن يهتز جسدها النحيل مع جرس الهاتف الذي بدَّدَ سكون المكان المسكون بقلقها، سارت خطوات باتجاه الهاتف، مدَّت يدها، قبضت السماعة لكنها ترددت. ترى من الذي يتصل الآن؟! تركت السماعة وهي تحدِّث نفسها: إنه ذلك النذل الذي يهددني باقتحام شقتي منذ دخلت أمي المستشفى، ولكنه لم يتصل منذ هدَّدتُه بأن أخبر الشرطة. قد يكون صاحب البيت يكرر مطالبته بالإيجار المتأخر، لا يمكن أن يكون بهذه الوقاحة فقد استمهلته أسبوعًا، لدفع مصاريف المستشفى. قد يكون أخي يعيد محاولته إقناعي بالزواج من سيده العجوز صاحب المؤسسة التي يعمل فيها، ولكنني قد حذرته من إعادة فتح هذا الموضوع بعد أن شتمني البارحة، لقد يئس من إقناعي، لا أظنه سيكرر المحاولة، ربما يكون والد التلميذة التي وبختها اليوم لسوء أدبها، لقد حذرتني المديرة من التعرض لها، فأبوها شرير لا يحترم أحدًا، كعادتي كنت

(*) 2001م.

متسرعةً، كيف أتفاهم الآن مع إنسان لا يحترمني؟ ولكن كيف حصل على رقم هاتفي؟!

تناوشتها المخاوف وتنوعت مع إيقاع جرس الهاتف، شعرت بارتياح عندما قررت ألا تجيب. سارت خطوات عائدة إلى غرفة نومها، لكنها استدارت تجاه الهاتف بسرعة عندما خطر لها أن يكون هذا الاتصال من المستشفى يحمل أخبارًا عن أمها، رفعت السماعة: آلو. آلو. لا أحد يجيب!

وضعت السماعة ليخيم السكون من جديد. تسللت المخاوف من تحت الباب المحكم الإغلاق، دخلت غرفتها، فإذا المخاوف تبدو مع نور الشارع النافذ من زجاج النافذة الشفاف، شدت الستارة بكلتا يديها، ساد الظلام لكن المخاوف قد ملأت زوايا الشقة الصغيرة.

حفلة وداع(*)

كأكثر الذين حضروا حفلة الوداع حضر غير مكترث للمضاف إليه في جملة (حفلة الوداع) فابتهجوا بالحفلة، ضحكوا، وتحدثوا كثيرًا، أنس الجميع بلقاء ملؤه البهجة، عاشوا خلاله سويعات أنس قليل ورودها. انتصف الليل أو كاد والضحكات تملأ مساء الحديقة التي عاشوا فيها ما جاد به الزمان من ساعات الصفو. أطلَّ عليهم الفتى العشريني الذي سينتظم في معسكر الجندية من الغد؛ أطلَّ بقامته الفارعة، وجسمه النحيل، ووجهه الأسمر الدقيق ذي العينين الغائرتين وقد تأبط حقيبته السوداء ذات الرباط المناط بكتفه الناتئة. عادت الكلمات إلى الحناجر، وغارت الضحكات في الصدور، وغشيهم الوجوم؛ وقد تذكروا أنهم إنما جاءوا لتوديعه. قال بنبرة متماسكة إلى اللقاء فأصحابي ينتظرونني. شكرًا لكم على حضوركم.

من إحدى زوايا المكان وقف صديقه الثلاثيني وقد تبددت البهجة التي ملأت نفسه لساعات. التقت عيناه عيني الشاب وقد بدا فيهما بريق الدموع، وقف متثاقلًا، سار

(*) 2002م.

خطوات مترددة أثقلتها كلُّ صور الوداع التي مرت به من قبل، أراد أن يقول كلمة وداع فثقل لسانه، وقد خرج من فضاء البهجة ليدخل نفق الوداع الضيق. فأشاح بوجهه وهو يقول: سأنتظر اتصالك عندما تصل إلى المعسكر. قال الشاب قبل أن يستدير باتجاه باب الحديقة: سأتصل إن شاء الله. عاد ليجلس في مكانه ولكنه اكتشف أن الحفلة قد انتهت، فأخذ طريقه نحو الباب دون أن يودِّع أحدًا.

عِيدُ المدينة(*)

حاولتِ المدينة أن تُلْبِسَه ثوبها، إلا أن قرويَّته الكامنة كانت تظهر في كثيرٍ من تصرفاته، قبل العيد بأيام جال في أسواق المدينة ليصبح كل شيء في بيته جديدًا أو كالجديد، وبرغم البهجة الطاغية التي تطرد النوم فقد أطفأ الأنوار وألزم أطفاله الإخلاد إلى وسائدهم قبل موعدهم المعتاد، فغدًا العيد ولا بدَّ من الاستيقاظ باكرين، ليلبسوا جديدهم وينطلقوا في جولة لزيارة سكان الحي.

في حديث ما قبل النوم سألته زوجته:

ـ من أين نبدأ المعايدة في الغد؟

ـ ليس هذا المهم، المهم أن تعتني بهيئتك أنتِ والصغار، فنحن في حيٍ راقٍ ولا يصح أن نبدو أقل من جيراننا.

ـ كل ملابسنا جديدة.

ـ هذا لا يكفي؛ العناية بتسريحة الشعر، وبأسلوب

(*) 2002م.

الحديث مع نساء الجيران، مهمٌّ أيضًا.

بعد الصلاة وقف في مشهد العيد يتلفت إلى الناس وكلٌّ يتجه صوب سيارته دون أن يلتفت إلى الآخرين، فتذكر عناق أهل القرية بعد صلاة العيد، ومباركة بعضهم لبعض فهزَّه الحنين إلى مسيرة أهل القرية، التي تعبر كلَّ الطرقات لتدخل ـ ومعها السرور ـ كلَّ البيوت، حيث يتحدثون حديث الأحباب وقد نسوا ـ مؤقتًا ـ مشكلاتهم الصغيرة، وتصوَّر عيد طفولته يولد من جديد في عيني أمه، وهو يقبل رأسها المضمَّخ بالطيب، ويديها المرتعشتين المزينتين بالحناء. في طريقه إلى منزله حل محل هذا الهاجس مشهد صغاره وهم يستقبلونه بملابسهم الجديدة، يتراقصون ويضحكون من فرط بهجتهم التي ـ لشدتها ـ لم يعودوا يستطيعون التعبير عنها إلا بالضحك.

عند باب الجيران وقفت زوجته وصغاره خلفه، بينما كان يتحدث إلى السائق الآسيوي، ردَّ السائق سلامه وناوله ورقة كُتب عليها:

(كل عام وأنتم بخير، شكرًا لزيارتكم، سجل اسمك ورقم هاتفك) قرأها فلم يفهم تمامًا المقصود، فسأله:

ـ ما هذه الورقة؟

ـ هذه ورقة سجِّل (معلومات أنت) قال له السائق.

ـ ولِمَ أُسجِّل معلوماتي، لقد جئت للمعايدة فقط؟!

ـ (بابا نوم، هو يشوف بعدين يتصل عليك)

كتب على الورقة: (عظَّم الله أجركم في العيد) ثم التفت إلى زوجته وأطفاله وقد لمح وجهًا آسيويًا آخر أمام باب جار آخر، يحمل ورقة خُيّلَ إليه أنها نسخة عن الورقة التي كانت بين يديه، فقال لزوجته وصغاره:

ـ هيا بنا، الجيران نائمون.

ـ ينامون يوم العيد؟! (سألت زوجته).

ـ وأين العيد؟ يبدو أن العيد ـ يا سيدتي ـ لا يعرف أرصفة المدينة، إنه يمرح فقط في أزقة القرية وطرقاتها، ما رأيكم أن ندركه اليوم هناك؟

ـ صرخ الأطفال بالموافقة.

المستقبلون(*)

لما اطمأنت به الطائرة في مطار القاهرة تهيب مغادرة مقعده، فليس سهلًا عليه مواجهة صف مستقبليه؛ يتقدمهم البارودي وشوقي وطه حسين والزيات والرافعي والغزالي والعقاد والتيمورية وبنت الشاطئ وأم كلثوم، ياله من حشد مهيب.!

غادر الطائرة تتعثر عيناه بحشود المستقبلين والمودعين، تشبَّث نظره بصاحبه الإسكندراني، عانقه، صحبه إلى سيارته مخلفًا وراءه خياله وجموع مستقبليه.

(*) 2002م.

على النيل(*)

على سفينة (علاء الدين) جلس يرقبُ النهر الخالد يمر تحته، يحسُّ في قطراته سحر الإلهام الذي سكن نفوس المصريين، وعبر شراييهم، وخالط دماءهم، العجيب أنه برغم ذلك ما يزال أزرق!

(*) 2002م.

الأرغفة(*)

في المطعم الشعبي تذوق الفول المصري، والجبنة المصرية، ولكنه انشغل عن شهوة الطعام بمنظر المصور العجوز الذي يلتقط الصور لزبائن المطعم، وبينما يُسلمهم صورَهم يدسُّ أنصاف الأرغفة بين صوره وأوراقه. يا للمصيبة؛ لقد ضبطوه. لم تُجْدِهِ توسلاته أمام قسوتهم، برغم نظرات ابنته التي ترقب الموقف من زاوية المطعم، أحسَّ بأن جزءًا من جسده يُؤخذ بعيدًا وهم ينتزعون منه الكاميرا، ترى بأي ذريعة بعدها يقترب من الأرغفة؟!

(*) 2002م.

متسولان

عند إشارة المرور أَلِفَ منظر المتسول الضرير؛ الذي يعرف طريقه بين السيارات برغم الزحام، تمتد إليه الأيادي بالقليل؛ بينما يتذمر العابرون من طول وقت الإشارة المفضية إلى شارع صلاح سالم، يرى بعينيه المنطفئتين حمرة الإشارة فتحًا لباب رزقه؛ وخضرتها غلقًا لذلك الباب. ذات مساء استوقفته الإشارة ولم يجد المتسول الضرير، جالت نظرات فضوله في المكان ليجده على ناصية الشارع في صراع مع متسول مقعد قد دس يده في جيب الضرير لينتزع حصيلة اليوم الذي جادت به الإشارة الحمراء.

في القطار(*)

في القطار بين الإسكندرية والقاهرة رأى البلدات التي يمر بها محمولة على أكتاف أبنائها الذين خرجوا من رحمها، ليجعلوها في قلوبهم فشرَّقت بها أسماؤهم وغرَّبت، ها هي إيتاي البارود على منكبي البارودي، وها هي طنطا على كتفي الطنطاوي، وها هو كفر الزيات يذكرنا بالزيات. على يمينه تلتقي زرقة السماء خضرة الزرع الذي سقاه النيل وعرق الفلاحين، فيعجب لهذا المزيج الذي قاتَ المصريين آلاف السنين.

(*) 2002م.

انكسار لحظات الهدوء(*)

دمعتان تستبقان على خدين طفحتْ عليهما حمرة الورد، فارقتا توًا عينين زرقاوين ناظرتين تجاه النافذة الموصدة. في حجرة يتسلل إليها ضوء خافت من الباب الموارب، وقد تحول صخب أول الليل إلى هدوء قاتل في آخره.

قذفتْ (ليلى) آهةً وهي تتجه نحو المرآة تتأمل كحلها المخطوط على خديها، بعد أن جرفته الدموع، تشعر رغم الهدوء القاتل أن رأسها لا يزال مشحونًا بأصوات الطبول، وصور النساء وعبثهن يمر في ذاكرتها كشريطٍ مُعاد، تحدثت إلى ذاكرتها وهي تعرض عليها مشاهد الحفلة: «إنها حفلة مثيرة، هي الأجمل في هذا الحي منذ انتقلنا إليه، كانت (نجوى) تبدو أجمل مما هي بكثير، منحها الفستان الأبيض جمالًا إضافيًا، تسريحتها وخِصَلُ شعرها جعلت من وجهها شعلة ضوءٍ متقدة على جيدها الطويل، يا للخداع الكل يقول إنني أجمل منها، وهي تقول ذلك أيضًا، ولكنها بدتْ هذا المساء أجمل الحاضرات، وزاد جمالها الزهو الذي

(*) 2003م.

كان يخاتل نظراتِ حيائها، هكذا (نجوى) دائمًا تزهو بانتصاراتها دون أن تعلن الانتصار، لم يكن زواجها انتصارًا عليَّ وحدي بل انتصارًا على كل فتيات الحي، اللاتي رقصن في عرسها مرغمات مثلي، كلنا نبدي السرور والابتهاج، لم تجرؤ واحدة منا أن تبوح بغيرتها للأخريات، لسنا في حاجة إلى البوح، كلنا نعرف كيف تفكر فتاة ترى أخرى على منصة الزواج، بينما هي تجلس بهدوء على رصيف الانتظار البارد. عندما صعدتُ لتهنئتها قبلتها فضمتني إلى صدرها، كنت أشعر أنها تقول لي اسمعي نبضات قلبي المملوء زهوًا وحياة، ضمتني وكأني الوحيدة التي شاركتها حفلة زواجها، إنها تشعرني بتفوقها في كلمات الوداع التي قالتها لي، وكأنها تودع معي حياتنا لتبدأ حياة الصخب الجميل، وأعود أنا إلى حياة الانتظار الهادئ، إنه أقسى انتصار حققته (نجوى) منذ بدأت صداقتنا الطويلة، التي لم تشفع لي عندها. دائمًا منافستي معها خاسرة، ربما لأنها كانت منافسة ترتدي ثوب الصداقة.

أين أنتِ يا أمي لتسكبي على قلبي كلماتك العذبة عن القسمة والنصيب؟ آه كم تبعث هذه الكلمات في نفسي الطمأنينة. ليتك تستيقظين، فتحدثينني بها حتى الصباح.

مجرد سؤال(*)

ينهمك الشيخ الثمانيني الصامت كثيرًا، المتأمل كثيرًا في تمتماته وتسابيحه، هكذا دائمًا بعد الصلاة يستند إلى مُتّكَئِه المعروف في المسجد وقد دخل في عالم مناجاته التي يرددها مؤكدًا على مخارج حروف ألفاظها، حتى عندما يعود إلى عالم الناس لم يكن يُعنى بهموم أهل القرية التي تستهلك كلَّ أوقاتهم، فقد باع غنمه منذ عشرين سنة، واكتفى بمزرعته التي يتعهدها ويقضي فيها سويعات الضحى في مواسم الزرع والحصاد. كان صمته يجلله بمهابة، تزيدها دعواته المستجابة، التي طالما نسجوا حولها الأقاصيص، ورووا ما نال الذين اقتحموا مناطق غضبه؛ التي لم يكن يسوِّرها إلا بدعواته، فلا ينجو ذلك الواقع في حماه من عقابيل غضبه.

في اجتماعات أهل القرية تحت شجرة الجُمَّيز الضخمة التي تحتضن المسجد وساحته، في تلك الاجتماعات التي يعقدونها بعد الصلاة بين الحين والحين، يبقى واقفًا معتمدًا بكلتا يديه على عصاه الغليظة، يستمع

(*) 2003م.

إلى المتكلمين وهم يكثرون الجدل في مسائل لا تحتمل عنده أكثر من جملة واحدة، لم يكن موقفه في كثير من الأحيان يختلف كثيرًا عن موقف شجرة الجُمَّيز؛ إلا أنه إذا اعلولى الصياح ترك المكان في خطوات متئدة باتجاه بيته؛ بينما لا تستطيع هي إلا أن تلزم مكانها تظللهم حتى ينفضوا؛ لم يكن هذا موقفه دائمًا ففي أحيان يقول الكلمة الأخيرة في الأمور الجادة التي تُبثُّ للمشاورة، ولم يكونوا يكثرون مجادلته، فقد عرفوا بمرور الزمن أن كلمته الأولى هي الأخيرة، ربما لأنه يفكر كثيرًا قبل أن يقولها؛ زعم بعضهم أنه يعاني كآبة منذ صدر شبابه عندما ماتت الفتاة التي كان ينوي أن يتزوجها؛ بينما يعدُّه آخرون من فئة العارفين؛ فيطلبون منه الدعاء لمرضاهم، أما هو فلم يكن يعيش هموم يومه بل كان مسكونًا بالماضي متوجسًا من المستقبل.

ذات ظهيرة قال لأهل القرية وقد مرَّ بهم مجتمعين يتحدثون: لو خُيِّرتُم بين أن تجوعوا ما بقي من أعماركم أو تموتوا الآن فماذا تختارون؟! أخرجهم سؤاله من جدلهم، ليدخلهم جدلًا آخر حول المفاضلة بين الجوع أوالموت. فلما اعلولى الصياح ترك المكان ـ كعادته ـ في خطوات متئدة باتجاه بيته.

سيرة صياد(*)

منذ صغره كان شغوفًا بصيد العصافير، يقضي سحابة يومه يصنع الأشراك التي إن هي أفلحت مرة خيَّبته مرات، كان أبواه يؤنبانه دائمًا على وقته الذي ينفقه في مطاردة العصافير.

لم تفلح السنوات الأربع التي قضاها في المدينة خلال دراسته الجامعية في تبديد هواية الصيد لديه، بل تطورت مفاهيم الصيد عنده فأخذ يحلق بفكره خلال محاضرات الأدب التي تتحدث عن شعر الطَّرَد، ويعيش خلالها مع الشعراء في مغامرات صيدهم.

شراء بندقية صيد كانت من أوائل أحلامه التي حققها بعد تخرجه في الجامعة، في مدرسته لم يكن مجرد معلمٍ يؤدي درسه وينصرف بل كان يتجاوز ذلك إلى تنمية مواهبً طلابه ومشاركتهم في اهتماماتهم حتى أحبه الطلاب، فكانوا يصغون باهتمام بالغ، وهو يحدثهم عن فنون الصيد، وعن دوره في بقاء الإنسان الأول الذي كان يتغذى بما

(*) 2003م.

يصطاد، كان يحفظ كثيرًا من قصائد الطَّرَد، ويرددها على مسامع طلابه، ويقرأ لهم بصوته العذب قصة (الصياد) للمنفلوطي.

بمرور الوقت أصبح طلابه يشاركونه في هوايته، ويفاجئونه بين الحين والحين بإحضار بعض الأرانب البرية، أو الحبارى، أحضر له أحدهم مرة ثعبانًا، لم يعجبه الثعبان ومع ذلك فقد أثنى على براعة الطالب في اصطياده.

كان بالنسبة إلى طلابه وزملائه في المدرسة كما بندقيته بالنسبة إليه، يحبونه كما يحبها، ويحرصون على مشاعره كما يحرص على نظافتها، ولا يخذلهم عندما يلجؤون إليه، كما لم تخذله يومًا وهو يوجهها تجاه إحدى طرائده؛ كل ذلك كان كفيلًا بانتزاعه من بين تلاميذه الذين أحبوا فيه شيم الصياد، ليصبح مشرفًا يُشيع الحبَّ بين المعلمين كما أشاعه من قبل بين الطلاب.

ولمَّا تطلع الشمس بعدُ في الوادي الذي يسلكه في طريقه لزيارة مدرسة نائية، كان ينقِّل نظره في جنبات الوادي وسفح الجبل وهو يتحدث للسائق عن متعة الصيد، وأهمية ارتباط الإنسان بالطبيعة، وعن اللذة التي تتملكه عندما يتحاور مع طريدته بلغة البندقية، وعن مدى القلق الذي ينتابه لحظة تصويب بندقيته إلى مقتلها: «إذا لم تصب الطريدة في مقتل فقد تجرحها ثم لا تمسك بها، ولا تسل عن مرارة تأنيب الضمير الذي ينتابك حينذاك، لذلك فعليك

أن تركِّز على الرأس لأنه مقتل مضمون، ولكي لا تنتشر نكهة البارود في لحم الطريدة فتفسده عليك».

تأثر السائق بحديثه فأخذ يروي بعض تجاربه في الصيد ومغامراته عندما كان شابًا، ثم قال: «أما الآن فقد ضعف بصري ولم أعد دقيقًا في التصويب»، قاطعه فجأة:

ـ أصمت. أصمت، وتوقف في مكانك بهدوء.

ـ ولكننا لم نصل إلى المدرسة بعد.

ـ توقف أعلم أننا لم نصل. توقف السائق دون أن يعرف لماذا.

ـ ألم تر ذلك السرب من الحبارى؟!

ـ لقد ضعف بصري، ألم أكن أشكو لك ذلك.

استخرج بندقيته من خلف المقعد، بينما ألزمتِ السائقَ الدهشةُ الصمتَ، حتى استجمع قواه ليقول: ولكن المدرسة لا تزال بعيدة وأخشى أن نتأخر. قال وهو يضع غترته وعقاله عن رأسه.

ـ لا عليك سنلحق بالمدرسة في مكانها، أين ستذهب المدرسة؟! انتظرني في مكانك دقائق فقط!!

زمَّ السائق شفتيه فيما يشبه الموافقة. أخرج مع بندقية الصيد كيسًا فيه حبالٌ صغيرة، وحزام وثوب رمادي، وبسرعة الصياد المتمرس استبدل بثوبه الأبيض الرماديَّ،

وربط حول وسطه الحزام، وقد تدلت منه سكين صغيرة. اعتلق بندقيته على كتفه، وفي خطوات متربصة غاب عن عيني السائق بين الأشجار الكثيفة التي تغطي ضفة الوادي وتمتد إلى سفح الجبل.

كان يحدث نفسه: من محاسن زيارة المدارس أنها تتيح لي رؤية مواطن الصيد البكر التي لم أرها من قبل.

التف من خلف سرب الحبارى. كان إذا تحدث عن صيد الحبارى يقول لمستمعيه: «مشكلة الحبارى دائمًا أنك لا تستطيع أن تصطاد من مكانٍ واحدٍ أكثر من واحدة، فلك الطلقة الأولى، ولن تجدها بعد ذلك». نجح في الالتفاف من خلف الحبارى، وأصبحت في مرمى بندقيته التي لم تخذله يومًا، أسِفَ كثيرًا أن يصطاد واحدة فقط بينما تنجو مجموعة كبيرة. قرَّر أن يسدد بندقيته باتجاه اثنتين متجاورتين، إنها تجربة مثيرة أن تصيب اثنتين برصاصة واحدة.

التصق بالصخرة التي يرقب الحبارى من خلفها، صوَّب بندقيته باتجاه حبريتين متجاورتين، كتم أنفاسه، استجمع سنوات خبرته الطويلة؛ «هي فرصة واحدة لا ثانية لها. يالسوء الحظ صوت سيارة يقتحم سكون الوادي، رفع رأسه عن الصخرة قليلًا، السيارة تقترب، صوتها سينفِّر الحبارى، يا للمصادفة إنه المعلم الذي جئت لزيارته، هذه أولى الملحوظات، لن يصل إلى المدرسة قبل نهاية الحصة

الأولى، ليس هذا المهم الآن، سأنتظر حتى يتجاوز، ولكن الحبارى ستطير ولا وقت للمطاردة من جديد، يجب أن أنتظر».

عاد السكون إلى الوادي، قرر أن يطلق؛ تردَّد: أطلق.. انتظرْ.. أطلقْ.. انتظرْ.. أطلقَ رصاصةً حملت معها تاريخًا طويلًا من مطاردة الصيد، أطلقها باتجاه رأسيهما. جاوزتهما الرصاصة لتستقر في رأس السائق.

تلويحة الصباح(*)

لمحها في النافذة تلوِّحُ جهته بيدها البَضَّة، شعر لأول وهلة أنه يتحرك مع كفها شمالًا ويمينًا، ابتسمت عيناها والحب يكاد يناديه من بين شفتيها المستديرتين، كان لحظتها يهمُّ بتحريك سيارته للخلف، أعاد ناقل الحركة إلى موضعه وقد ارتختْ مفاصله وسهمتْ عيناه، وعلقتْ يداه بالمقود، شعر أن صدره لم يعد يتسع لقلبه وهو يخفق متهيئًا للطيران، بصعوبة أخذ نفسًا عميقًا، مدَّ يديه تجاهها، اصطدمتا بزجاج السيارة الأمامي، أغلقت النافذة.

أغمضَ عينيه، هزَّ رأسه بعنف، تخيلها في النافذة، فتح عينيه، لم يجدها، «كيف أفلتت صورتها من ذاكرتي بهذه السرعة؟»، شعر بصوت سيارة تتحرك خلفه، التفت إليها، إنه والدها؛ «ترى هل رآها وهي تلوِّحُ لي؟!».

جاوزت الساعةُ الثامنةَ موعدَ وصوله المعتاد إلى عمله ولم تظهر ثانية، غلبه اليأس فتحرك قليلًا إلى الخلف، استدار بسيارته بسرعة تجاه عمله، وصل متأخرًا، وعندما

(*) 2003م.

سأله زميله عن سبب تأخره، أجاب بسؤاله: «هل سمعتَ بالحب من أول نظرة؟»

ـ طبعًا سمعت، هل أفهم أنك وقعت؟

ـ آه. يا محمد، لوَّحتْ لي بيدها فهزتني في كل اتجاه، وضحكت عيناها فغرزت في قلبي أظافر حبها التي لا ترحم، آه ما أجمل عينيها الضاحكتين. أستأذنك سأعود فأنتظر منها إطلالة ثانية .

في التاسعة كان في المكان يتصفح الجريدة في سيارته، غلبه النعاس فنام جالسًا، أيقظته وقْدَةُ الحر عند الحادية عشرة. عند الثانية عشرة غلبه اليأس، وتبدد الحلم، دخل بيته واجمًا، تذكر أنه لم يفطر، قرر الاكتفاء بوجبة الغداء.

مضت ساعات النهار مليئة بعواطف كامنة، حركتها تلويحة الصباح، ردد خلالها مقاطع غنائية كان يحفظها، أصبح اليوم يعيشها بمعانيها، كان آخرها (أقبل الليل) بين الحين والحين يحاول استعادة الصورة التي أفلتت من ذاكرته بعض تفاصيلها.

على فراشه كان يغني (سهران لوحدي أناجي طيفك الساري) ومضت ساعات وهو يتقلب على فراشه وقد جافاه النوم، كان يستجلبه ولا يجيب.

سأل نفسه: «ترى هل سأراها في الصباح؟ بالتأكيد

فهي تعرف موعد ذهابي إلى العمل، حتمًا ستودعني كما فعلت اليوم».

قبل السابعة كان في سيارته، شَخَصَ بعينيه جهة النافذة، أطرق عندما رأى والدها يخرج من البناية تجاه سيارته، كانت سيارة والدها محاذية لسيارته، خشي أن تطل فيراها والدها، «ليتها تتأخر قليلًا حتى ينصرف».

فجأة أطلَّتْ من النافذة، ارتختْ مفاصله، سهمتْ عيناه، علقتْ يداه بالمقود، شعر أن صدره لا يتسع لقلبه، لوَّحت بيدها لأبيها ولوَّح لها، استدار والدها بسيارته، ثم انصرف، بينما أغلقت النافذة، فكر قليلًا، ألقى نظرة جهة النافذة أبَّنَ بها حُلُمَه القصير، ثم اتجه إلى عمله، فكان اليوم أول الواصلين.

صورةُ الشهيد(*)

سمعوها تُحدِّث نفسها بصوت حادٍ مسموع فأسرعوا إلى غرفتها، وقف أحمد وبجواره أخواته الثلاث، بينما هي تقرِّب كرسيًا نحو الجدار، ما بك يا أمي؟ سألها أحمد.

ـ لا شيء يزعجني سوى عبثكم، ألا ترون الصورة، كيف أصبحت مائلة، من الذي حركها؟ من الذي عبث بها؟ لا شيء يسلم من عبثكم، حتى صورة الشهيد. تعال يا أحمد. تعال عدِّلها كما كانت.

أمسكت له الكرسي.ارتقى عليه وضبط الصورة.

ـ هكذا. تمام؟

ـ يكفي يا ولدي. وحذارِ أن أراها مائلة مرة ثانية.

خرج أحمد وأخواته دون جدال، لعل الموقف يمر بلا دموع، تراجعتْ خطوات تقيس الصورة بنظراتها، تبدو معتدلة الآن. كل شيء إلا صورة الشهيد، هي كل ما بقي لي منه، جلست على طرف سريرها تنظر إلى صورة

(*) 2004م.

الشهيد؛ شابٌّ وسيم مستقيم الوجه، شامخ الأنف، تبدو عيناه صافيتين من تحت القبعة العسكرية، تنظران إلى الأفق البعيد، وقد خط شاربه الرقيق الذي زاد وسامته، يبدو وجهه شديد الصفاء من خلال بذلته الكحلية، التي زينتها نجمةٌ تلمعُ على كتفيه.

تتذكر جيدًا عندما بشرها بقبوله في الكلية العسكرية، وتتذكر استعداده لحفلة تخرجه، وتتذكر أول يوم اتجه فيه إلى عمله الجديد. قالت له يومئذ: الله. الله في الأَمانة التي أقسمتَ عليها، فوطنك أرضعك كما أرضعتك يا ولدي.فأجابها: لا تخافي يا أمي. الأمانة في عنقي، ووطني في قلبي.

تتذكَّر أيضًا يوم جاءها نبأ استشهاده في ميدان الواجب، كان المصاب فادحًا، ولكن الناس يعزونها بأنها أصبحت (أمَّ الشهيد) لم يعد أحدٌ يناديها (أم محمد) بل أم الشهيد، ثلاث سنوات مرت، حاولت أن تصنع من أخيه سالم نسخة أخرى من الشهيد، كانت تسميه أخو الشهيد، تكرر المحاولة الآن مع أحمد بعد أن يئست من سالم، منذ ترك البيت، لا تدري إلى أين، عام كامل لا تعرف عنه شيئًا، كان يتصل بها أحيانًا، فتسأله أين أنت يا سالم، فلا يجيب وينهي المكالمة. بينما تتجرع غصص الفقد والغياب، فَقْدِ الشهيدِ وغيابِ سالم. لم يستطع أحمد وأخواته تسليتها برغم محاولتهم الدائمة.

عادت تتأمل الصورة. تتلمس الشهيد بنظراتها وكأنه ماثل بين يديها، تضمه بقلبها، تتحدر الدموع سراعًا على خديها، تتخيله يطرق الباب ويدخل بصخبه الجميل وابتسامته المعهودة.

أفاقت على صوت جرس الباب، اندفعت خارج غرفتها، لم يكن الشهيد، إنه أحمد، حاولت أن تخفي خيبة أملها، فقبَّلت أحمد بين عينيه، وقبَّل يديها وأشاح بوجهه عنها وهو ينشر صحيفة كانت بيده على الأرض لتشاهد مع أحمد وأخواته صورة سالم، بين منفذي عملية إرهابية، كان أحمد يقرأ لهم بيان وزارة الداخلية، لم يحتمل قلبها النبأ، شعرت بدوار وهي تصرخ: إرهابي يا سالم؟! أخو الشهيد إرهابي؟! وسقطت مغشيًا عليها.

فتحت عينيها لتجدهم يحيطون بها، حاولت أن تتكلم فلم تستطع، حدَّقت إلى الوجوه، نظرت جهة الصورة، حاولت الكلام فعجزت، أشارت إليها، وهزَّت رأسها، التفتَ أحمد إلى الصورة فرآها مائلة، عرف ما تريد أمه، أخذ الكرسي الذي يجلس عليه، قرَّبَه من الجدار، ارتقى عليه ليُعدِّل الصورة، حركها، حاول ضبطها، سقطت الصورة وتناثر زجاجها المهشم، ليختلط دوي سقوطها بصراخ البنات على أمِّ الشهيد.

ليلة العيد(*)

تقلَّب في فراشه وقد استعصى عليه النوم، رفع رأسه يرمق صغاره الذين ناموا متأهبين للغد، وقد رتبوا ألعابهم وثيابهم الجديدة، لم يكن يدرك حقيقة شعوره تجاه فرحتهم بالعيد؛ هل يحسدهم على تلك الفرحة أم يشفق عليهم أن تبددها الأيام، فيمضي العيد يومًا كسائر الأيام دون أن يعبر إلى قلوبهم، التفت إلى الساعة الضوئية قبالة السرير، إنها الثانية صباحًا؛ ليتني أنام قليلًا قبل الفجر، حاول استجلاب النوم فلم يفلح، ثنى الوسادة حول رأسه ليمنع عن أذنيه صوت الفرقعات التي يطلقها صغار القرية الذين قرروا أن يبدؤوا فرحة العيد.

من بين أطراف الوسادة كان ينظر إلى زوجته التي تغطُّ في نوم عميق بعد ليالٍ متتالية من الترتيب والتنظيف، وإعداد البيت والصغار ليوم العيد. حتى أنتِ ما زلتِ تفرحين بالعيد، وبالفستان الجديد. هنيئًا لكم. أما أنا فلن ألبس جديدًا، إنَّه يومٌ لا يختلف عن بقية الأيام لا يختلف عنها إلا أني أقف أمام أهل القرية فأقرأ الخطبة، وهم

(*) 2003م.

يستمعون بالدهشة ذاتها والملامح ذاتها والهموم ذاتها، التي أراها من على ذات المنبر كل يوم جمعة، خلال عشرين سنة أقف أمامهم وقد تجددت الهموم، وزادت الشعرات البيض في لحاهم، ورسمت السنون مزيدًا من الخطوط على وجوههم، تنوعت همومهم ولكنها لم تنته يومًا.

عندما أجلس بين الخطبتين لا تخطئ عيني الرجل السبعيني الذي تزوج في موهنٍ من العمر فأنجب طفلين لم يبلغا معه السعي، ولم أنس شكواه، أن العمر لم يعد يتسع للتربية والرعاية، إلى جواره تمامًا يجلس الراعي الذي ماتت زوجته منذ عامين، ولم يجد امرأة تقبله زوجًا، فهن يردن موظفًا ذا مال وبيت وسيارة، قالت إحداهن: سأتزوجك عندما تقتني سيارة، لنقضي مشاويرنا دون الحاجة إلى أحد.

إلى جوارهما يجلس صاحب الحاجبين الثائرين، هكذا منذ عشرين سنة يحتبي بلحافه المخطط وينام مستغرقًا في أحلامه التي لا أظنها تخلو من مشاجرات مع جيرانه. هكذا لم تتغير الوجوه. برغم اختلاف الهموم.

في الصف الثاني يجلس (الزوج الطيب) سَمّوه بذلك لأن زوجته تمتلك بوصلة رضاه وغضبه، وعلاقاته بأهل القرية، فيخاصم من تشاء ويصاحب من تشاء.

هكذا يجلس أهل القرية يستمعون الخطبة، كلٌّ قد شُغل بهمومه، حتى أنا برغم انفعالاتي الظاهرة فقد انشغلت

عنهم بهمومي، فكلما ارتقيت المنبر انتابني شعور بالوحدة، فأرسل نظراتي إلى وجه أبي الذي يبدي تأثرًا ورضًا عما يسمع، وجه أراه مختلفًا وأنا على المنبر، يفيض بالطمأنينة، أشعر وأنا أسارقه النظرات بطمأنينة تتسلل إلى داخلي، ثم لا تلبث أن تبددها صورة المكان بدون وجهه المتسامح، خاطرٌ مخيف يعتادني منذ غاب جدي عن مجلسه في المسجد، وما كنت أتوجس غيابه. منذ تلك اللحظة التي ارتقيت فيها المنبر فلم أرَ جدي يجلس إلى جوار أبي، تلبسني هاجسُ فقدِ أبي كلَّما ارتقيتُ المنبر.

أطلَقَ الوسادة المثنية حول رأسه، حاول الفرار من هاجس فقد أبيه، جلس في منتصف السرير، وقد شدَّ ركبتيه إلى صدره، أكلُّ هذا لأن العيد غدًا؟ أهذا العيد الذي كنت لا أنام شوقًا إلى نور صباحه؟ فلا تشرق الشمس حتى أكون قد لبست ثوبي الجديد واجتمعت بصبيان القرية، لم يكن يومًا واحدًا بل أيامًا تتصل بهجتها، كنا نردد مع الراديو: «يا ليلة العيد آنستينا..» فلم لم تؤنسيني الآن يا ليلة العيد. آه ليتك تعود أيها العيد. قالها وهو يغادر السرير ليُعدَّ خطبةً جديدةً لعيدٍ لا يرى فيه جديدًا.

سلام لله(*)

منذ أيام فقط صافحتْ عيناه المدينة، فبهره كلُّ شيء فيها، اكتشف أن هناك شيئًا آخر غير القرية وأهلها، فلم يكن وهو ابن الثالثة عشرة قد جاوز حدود قريته. أما الآن فقد اقتحم المدينة ليسكن في شقة نظيفة في الدور الثالث من بناية ذات خمسة طوابق، شقة واسعة ليس فيها إلا عمته التي أرادته أن يؤنسها خلال غيبة زوجها. لم يستشره أحد فيما إذا كان يرغب في القيام بهذا العمل أم لا.

يسوقه الفضول والملل ليتسلل إلى الشارع فيسير خطوات مترددة، ثم لا يلبث أن يلتفت ليطمئن أنه لم يبتعد كثيرًا عن البناية، يتشجَّع قليلًا فيزيد في تلك الخطوات.

التفت فلم ير البناية، حاول العودة فتشابهت عليه الطرق، غلبته الحيرة، وتملكه الذعر، أخذ يجري بلا اتجاه، شعر أنه لا يستطيع التنفس. استيقظ مذعورًا، استراح قليلًا عندما تأكد أنه حلم، وقرّر ألا يسير في صباح اليوم التالي.

وبرغم ذلك الحلم المزعج فقد غلبته رغبته في رؤية

(*) 2004م.

أشياء جديدة. بينما كان في أعلى السلم في دور البناية الثاني، رآها صاعدةً السُّلَّم، وقف في مكانه يحدِّق إليها، كان السلم طويلًا بحيث يمكنه استيعاب هذه الصورة الجديدة. كانت تنظر إليه ثم تصرف نظرها، تنظر إليه ثانية فتجده ما زال يحدِّق باتجاهها، عندما اقتربت منه رأى حمرة على خديها. رأى وجهًا ناعمًا لامعًا، وعينين زرقاوين، وشفتين حمراوين مكتنزتين، وشعرًا أشقر؛ بعضه متهدل على جبينها، بينما تضم الباقي ضفيرتان ترقصان على كتفيها كلما صعدت درجات السلم.

في القرية تلبس الفتيات ثيابًا فضفاضة ويغطين شعرهن بالمناديل، وينتعلن في المناسبات، لم تكن كذلك؛ كانت تنتعل حذاءً لامعًا، وتلبس بنطالًا، وقميصًا زاهيًا.

التزم (درابزين) السلم ذاهلًا، تحركت فيه مشاعر لم يعهدها من قبل، شعر بسرور وخوف وحيرة، تختلط في صدره. كان شوقه إلى القرية عارمًا فبددته هذه الصورة التي اندلقت في عينيه المدهوشتين، تبدو أجمل كلما اقتربت، قبل أن تحاذيه أطلق لسانه المتردد: السلام عليكم.

أجابته: «ما ني زلمة تا تسلِّم عليَّه».

أعجبته تلك الكلمات وهي تتساقط كحبات البرد من فمها الصغير، ورغم أنه لم يفهم بأي لغة تتحدَّث؛ فقد شعر أنها توبخه، ألهب الخجل وجهه، وأطرق في مكانه حتى سمع باب شقتها، ثم انسحب إلى شقة عمته، وهناك عاوده الحنين إلى قريته من جديد.

آنية الزهور(*)

وضع ربيع لمساته الأخيرة على مكتبه، وسار خطوات إلى الوراء، ليلقي نظرة من جوار الباب تجاه زوايا المكتب. هكذا سيبدو عندما يطل المدير لأول وهلة، شيء باهر يستحق ما بذلته من جهد ومال في تزيينه.

قضى ربيع وقتًا طويلًا وأنفق كثيرًا في تلبيس جدران المكتب وتعليق الستائر ذات اللون الأزرق المشجَّر، تبدو منسجمة تمامًا مع السجاد وطقم المكتب، لقد زادتها جمالًا تلك الآنية النحاسية الموزَّعة على الجدران تتدلى منها الزهور التي يستحثها أن تتفتح قبل منتصف الشهر موعد جولة مدير الشركة.

سيعجبه مكتبي حتمًا فهو يتذوق الجمال ومكتبه دليل دائم على ذوقه الرفيع ستدهشه أناقة أثاثه وانسجام ألوانه، وسيقف كثيرًا أمام هذه اللوحة النادرة التي تزين جدار مكتبي، وإلى جوارها الآنية النحاسية التي تتدلى منها الزهور الجميلة. صدق الذي قال (الورد جميل). لن يفوته

(*) 2004م.

أن يقرأ اسمي المنحوت بالخط الديواني على اللافتة البلورية التي تتوسط طاولة المكتب. ما أجملها لو كُتب عليها (رئيس قسم المبيعات) ليس أمامه إلا أن يكلفني رئيسًا لقسم المبيعات، كل شي هنا يقول: (ربيع حسن. رئيس قسم المبيعات) لا ينقصني سوى توقيع المدير، وقد آن أوانه. سأقدم طلبي عندما أقرأ الدهشة والإعجاب على صفحة وجهه، لن يتردد في توقيع طلبي هذه المرة. قطع رنين الهاتف خواطر ربيع. لا بد أنه سكرتير المدير يخبرني ببداية الجولة.

ـ آلو. نعم.

ـ..

ـ وعليكم السلام.

ـ..

ـ شكرًا. كل شيء جاهز. مع السلامة.

تجاوزت رائحة البخور حدود مكتب ربيع إلى الصالة الخارجية، ألقى نظرة اطمئنان على زوايا المكتب، لم ينس آنية الزهور النحاسية المتدلية في زوايا المكتب، كل شيء كما يجب.

جلس أمام جهاز الكومبيوتر المحمول، يتصفح بعض التقارير المسجلة عليه. ليطلع المدير عليها، شعر أن شخصًا يقف أمام الباب، تسارعت نبضات قلبه، رفع رأسه وهمَّ

بالقيام وقبل أن يستكمل قيامه عرفه إنه حارس الشركة فجلس من جديد.

ـ السلام عليكم.

ـ نعم. ماذا تريد.

ـ طلبوا توقيعك على معاملة تقاعدي من الشركة.

ـ ليس وقته يا عم ناصر. تعال بعد الظهر.

ـ ولكن يا أستاذ ربيع.

ـ قلت لك بعد الظهر ألا تفهم.

استدار الحارس في خطوات منكسرة، وعاد ربيع إلى جهاز الكومبيوتر. شعر بقدوم المدير ومعاونيه، خرج من مكتبه إلى صالة مجاورة لاستقبال المدير. وقف ربيع أمام باب مكتبه يرمق المدير ومرافقيه وهم في طريقهم إليه، وقبل أن يسلِّم المدير على ربيع رنَّ هاتفه الجوال، مدَّ يده اليمنى لمصافحة ربيع بينما أخذ هاتفه بالشمال، رفعه قريبًا من عينيه وحدَّق إلى شاشته الصغيرة، ثم انتحى جانبًا ليجيب على المتصل، كانت نبرة المدير منخفضة لم يستبن ربيع موضوع حديثه، ولكنه بقي في مكانه ينتظر، وفجأة استدار المدير في خطوات عجلى عائدًا جهة مكتبه، وتبعه مرافقوه، بقي ربيع في مكانه حتى اختفى المدير في منعطف عند آخر مكتب في الدور الثالث. عندها دخل ربيع مكتبه وألقى بجسده على مقعد قبالة مكتبه. أخذ يمسح العرق عن

جبينه ويقلِّب نظره في الستائر وورق الحائط واللوحة النادرة، ويمر نظره على آنية الزهور النحاسية، خيل إليه أن الزهور تخرج لسانها متشفية، نهض تجاه آنية النحاس، اقتلعها من مشجبها وقذفها من النافذة، ثم ألقى بجسده على كرسي مكتبه هذه المرة. سمع جلبة وأصواتًا أسفل البناية، نهض، سار خطوات جهة النافذة، أطل برأسه؛ ليجد العم ناصر ممددًا على الأرض، ومن حوله بعض عمال الشركة يحاولون إيقاف نزف الدم من الجرح الغائر في رأسه.

ليلة(*)

ودارتْ به الليالي ليقضي ليلته هذه في الغرفة ذاتها التي ضمتهما منذ عشر سنين، لم يتبدل الأثاث: الخزانة الخشبية، السجاد، الستائر، المقاعد حول الطاولة الزجاجية، السرير أمسى الآن بعيدًا عن النافذة، فكَّر في إعادته إلى موضعه لتكتمل الصورة، سرعان ما عَدَلَ عن الفكرة. وأخذ يتأمل الأشياء من حوله، يتذكر التفاصيل، تتراقص المشاهد حوله، يراها تعود إليه هنا بعد عشر سنين من الغياب.

«على هذا المقعد جلست تحدثني عن المستقبل، عن أحلامها، عن الأشياء التي تحبها، كانت طيبة حدَّ السذاجة؟، هل كنت أشعر بروعتها كما تبدو لي الآن؟» نظر جهة التلفزيون: «إنه الجهاز نفسه لم يتغير، ترى ألا زال يحتفظ بالمشاهد نفسها التي رأيناها معًا؟! عشر سنين من الغياب، ترى مَن يتحمَّل مسؤولية افتراقنا؟ لست أنا بالتأكيد. ولا هي أيضًا. فمن إذن؟! لعلها الأقدار! لقد

(*) 2004م.

كانت بريئة نقية، كان إخلاصُها وحياؤها جمالَها الحقيقي. آه ما الذي جاء بي إلى هنا هذه الليلة»

تناثرت الأسئلة حوله ملأت زوايا الغرفة، كاد غبارها يحجب عنه الأشياء التي أحبها.

انتصف الليل. تبعثرت اللحظات، تكاثرت الأسئلة، شعر أنها تخنقه. حاول الإمساك بتفاصيل مرت من هنا في ليلة دافئة منذ عشر سنين، تذكر المواقف والكلمات والهمسات والضحكات، جاءت الذكريات صافيةً تمسك كل واحدة بيد الأخرى، تفر منه اللحظات، يتركها ويجري وراء زهور تلك الليلة يلملمها ليزرعها فيما تبقى له من لحظات ليلته هذه، أخذت الأسئلة العطاش تدور حول رأسه، تتحول إلى زوبعة تعبث بكل الذكريات الجميلة، توشك أن تكون إعصارًا يقتلع الزهور التي نبتت على حواف ليلته تلك، لم يبق له سوى تلك الزهور التي تفوح برائحة التفاصيل، بإصرار طرد كلَّ الأسئلة، مسح غبارَها بدموع تترقرق في عينيه، وعندئذ هطلت تلك اللحظات التي سكنت غيمتها في زاوية قصيَّةٍ من سماء ذاكرته، هنا في الغرفة ذاتها حضرت تلك الليلة وقد ازيَّنت بكل تفاصيلها، حضر هو وحضر قلبه وحضر الشوق، وغابت هي.

المقابلة(*)

وتمضي أفاويق من الليل وأحمد يتقلَّب في فراشه، يعيد النظر إلى مؤشر الساعة الفسفورية المعلقة على الجدار قبالة السرير، يقترب المؤشر من الثانية، تمضي الدقائق مثقلة بالأسئلة، التي لا يملك لها إجابات، يساوره الشك، ويحدوه الأمل، ومع هذا لا يأتي النوم، ومؤشر الساعة لا يكاد يتحرك، ضَجَرٌ يملأُ المكان، لم يُطق البقاء في سريره، ارتدى معطفه الرمادي، تسلل خارجًا، أغلق الباب بهدوء حتى لا يستيقظ أبواه، كان السكون يغشى المدينة، أدار محرك سيارته، جال بلا اتجاه، وكل شارع يُسْلِمُه إلى الآخر، حتى وجد نفسه على طريق المطار. شعر بوحشة تلف الطريق، في حين تبدو الأشجار بين اتجاهيه متشابهةً كالأشباح.

أوقف سيارته على تلٍ مشرف على المطار وبقي يرقب الطائرات الجاثمة على المدرج.

أقلعت طائرة، فحلَّق معها بلباسه الأزرق المخطط

(*) 2004م.

عند الرسغين، وقبعته التي تقترب من حاجبيه، كانت الطائرة تغوص في لجج الظلام بينما يحلِّق خياله بين مطارات العالم ويتحدث اللغات، ويُصْدِرُ الأوامرَ لطاقم الطائرة.

يرى طائرة مقبلة تقترب من مدرج المطار، فيجد نفسه عائدًا معها، شعور بالزهو وهو يحط في مطار مدينته، وعما قليل يستقبله أبواه وإخوته، إنها السعادة التي لا توصف؛ «بيني وبينها أن أجتاز المقابلة وأُبتعث لدراسة الطيران، ساعاتٌ قليلة تفصلني عن تحقيق حُلْمي». حرَّك سيارته عائدًا، ليأخذ أوراقه ويتجه إلى مقر المقابلة، لم تكن الساعةُ كافيةً، شعر أن مؤشر الساعة يسير أسرع مما كان عليه، حرك مؤشر السرعة في الاتجاه نفسه.

المؤشر يقترب من تمام السابعة، توشك المقابلة أن تبدأ، حينئذ كانت سيارة الإسعاف تُقل أحمد.

على كرسيه ذي العجلات يجلس على التل ذاته، يتأمل الطائرات، تقلع وتهبط، وتبقى أحلامُه حبيسةَ كرسيه المتحرك، يتذكر الساعة السابعة موعد المقابلة التي مضت منذ سبع سنين.

البهجة الحزينة(*)

كان صباحًا مختلفًا حين أطلَّت عليه من فوق عرشها؛ لتبدوَ كلُّ محاسنها ويعبقَ أريجُها، تكاد تقول له: «هَيْتَ لَكَ» نظر بعين العاشق الذي أضناه الفراق، رأى فيها معنىً آخرَ من معاني الجمال، تحركتْ نحوها أنفاسُه المتعبة، اقترب منها خطواتٍ وئيدةً، ولكنه تَمَهَّلَ إذ لم يَحِنْ بعدُ أوانُ قِطَافِها. سيزيدها الوقتُ جمالًا وأريجًا.

ها هي اليوم أجمل منها بالأمس، لم تستطع عيناه إحاطةً بجمالها، أريجها اليوم يأتيه يَجُرُّ أنفاسَه إليها، خطا نحوها خطواتٍ. مدَّ يدَه إلى الغصنِ الرقيقِ الذي يحملها، مال بها نحوه وأنفاسه تتلاحقُ سِراعًا. فجأةً أطلقَ الغصنَ ليتأرجَحَ قبل أن يهدأ ويستقر.

كان منظرًا بديعًا، تأرجُحُ زهرةِ البنفسج وهي تبتعد عنه وتدنو. أنفاسُه المتسارعةُ تذكره بكلام الطبيب: «لا تقتربْ من الزهور فهي تثير حساسية رئتيك».

ـ إلا البنفسجُ يا دكتور.

(*) 2004م.

ـ البنفسجُ أخطرُها.

ـ ولكن إلى متى؟!

ـ حتى تتجاوز الأزمة، أقلُّه خمسة أيامٍ»

آنيةُ الزهورِ في حجرةِ نومِه أمستْ خاليةً من الزهور على غير عادتها، لم يخلُ مكتبه قبل اليوم من زهور البنفسج، ها هي الأيامُ الأربعةُ الباقيةُ تَلُوحُ أمامَه كالأشباح، لا يكاد يرى لها نهاية. يرمق شجرة البنفسج تزهو بأزهارها أمامه، لقد أصبح لتلك الزهرة الوحيدة أخواتٌ يضاهينها في جمالها، منظرٌ لا يُقاوم، ولكنه عَجِزَ أن يعْقِدَ صُلحًا مؤقتًا بين رئتيه والبنفسجِ. كلَّ صباحٍ تودّعُهُ البنفسجةُ بأريجها فيودّعها بنظرة فيها موعد.

قبل أن يُجَاوزَ فناءَ بيته وقف يتأمَّلُها، ينظر إلى قطراتِ الندى على زهراتها فيعطف عليها ويَهِمُّ بلثْمِها ثم يتراجع؛ إنها رقيقة حزينة، كيف تحتمل هجران الذي أحبَّها، وقاسى من أجلِها عذابَ رئتيه، رغم أنه حبٌّ قاتلٌ، ولكن البنفسجة الحزينة متسامحةٌ، أشاحَ بوجهه وهو يتمتم: «ليه يا بنفسج بتبهج وأنتَ زهر حزين؟».

ليس يدري أيهما الملوم: رئتاه أم البنفسجُ، غير أنه يدري أن قلبَه ضحيَّةُ ذلك الصراع. لم يكن محايدًا، فالبهجة تملأ قلبه كلما رأى زهور البنفسج، ويعتصره الحزن أن تحول رئتاه بينه وبين أريجها، كانت رغم حزنها الكظيم

تملأ قلبه بهجة، أما اليوم فقد شاركها في الحزن، ولم يعد قادرًا على أن ينتزع من أريجها البهجة.

انقضت الأيامُ الخمسةُ؛ كان صباحًا مليئًا بالبهجة، نفض بقايا الليلِ من عينيه، أخذ نفسًا عميقًا ليختبر رئتيه، غادر غرفته باتجاه شجرة البنفسج، ليجدها عارية، قد تناثرت الزهور على الأرض، كانت نظراتُه مشحونةً بالدهشة والدموع التي ودَّع بها آمالَه الذابلةَ، لتَنْبُتَ بنفسجةُ الحُزنِ في قلبِهِ هذه المرة.

التابوت(*)

بزهو يملأ جوانحه وقف يتأمل التابوت الخشبي المزخرف، استرعت انتباهه الزخارف التي تملأ جدرانه من الخارج والداخل، اقترب منها أخذ يحدِّق إليها باتساع عينيه، وضع قدمه اليمنى في التابوت، تبعتها اليسرى، انثنى يتأمل زخارفه، استلقى على ظهره.

لفرط طوله اضطر أن يثني ركبتيه إلى صدره، مضت عليه سنواتٌ يتقلب داخله مثني الركبتين.

كانت الزخارف متداخلة لا تُعرَفُ لها بدايةٌ من نهاية؛ أشكالٌ هندسية معقدة التركيب، الدوائر تتكرر في جميع الأشكال الزخرفية، أخذ يتأمل الدوائر. حاول أن يعدها، قبل أن ينتهي من عدِّها يسهو، فيكرر العدَّ من جديد، ثم يسهو ثانية، فيكررالعدَّ.

قرر أن يكتب داخل كل دائرة رقمها، بعد أن فرغ من الترقيم، عاد إليها فإذا في كل دائرة علامة استفهام. كَرِه الزخارفَ والدوائرَ والأرقامَ وعلاماتِ الاستفهام.

(*) 2004م.

حاول أن يمدَّ جسده فلم يستطع، مضى زمنٌ ومحاولاته تتكرر دون جدوى، استجمع قوّتَه ذات عزم ومدَّ قدميه بكل ما أبقى له التابوت من قوة، قرر أن تكون المحاولة الأخيرة، لم تفلح المحاولة، شعر بألم قاسٍ في ركبتيه.

عاوده السكون زمنًا، شُفيتْ خلاله ركبتاه، خطر له أن يقف، تردد إذ لم يستعمل قدميه منذ زمنٍ طويل، فأنى له الآن؟! لقد غابت فكرة الوقوف عنه خلال تلك السنوات ولكنه قرر أن يحاول، جلس القرفصاء، استند إلى ذراعيه، رفع رأسه إلى أعلى، دفع صدره إلى الأمام وقف على ركبتيه، أسند يديه إلى حافتي التابوت وجد نفسه واقفًا، لم يُصدِّق بادئ الأمر، تحسس جنبيه، نظر إلى قدميه القابعتين في التابوت، رفع اليمنى وضعها خارج التابوت، نظر إلى قدمه الأخرى وقد ضمها التابوت، حاول نزعها فلم يتمكن، فقد ضاق من حولها التابوت، استجمع قوته من جديد، اعتمد على قدمه اليمنى وركله بكل قوته، وقف على قدميه من جديد، لكن خارج التابوت هذه المرة، مدّ قامته إلى أعلى ما وسعه ذلك، دفع صدره إلى الأمام، وخطا خطوته الأولى، رأى عوالم أخرى تدعوه بعيدًا. التفت فوجدَ أناسًا آخرين يلتفوّن حول التابوت يتأملون الزخارف ذاتها، يحاولون عدَّ الدوائر، يرسمون حول كل دائرةٍ دائرةً أخرى، وينقطون تحت كل علامة استفهام نقطة أخرى، بينما هو يغرق في الضوء، كانوا يعدون الدوائر، ثم يكررون العدَّ ولا يفلحون.

الوثيقة(*)

بين يدي القاضي راوده شعور بالأمان، افتقده منذ ادعى عمُّه ملكية المنزل الذي ورثه من أبيه، قبل أن يتمكن منه ذلك الشعور، ناوله القاضي وثيقة المبايعة؛ سائلًا إياه، أهذا خطُّك؟ لم يجب، فقد كانت عيناه تلوكان سطور الوثيقة، بينما ذاكرته تركض به نحو مراحل الدراسة الأولى، حين كان العمُّ يعلمه الإملاء؛ فيمليه كلمات ظاهرها التعليم، وحقيقتها إقرار باستلام قيمة المنزل الذي خلَّفه والدُه.

أتمَّ قراءة الوثيقة دون أن يتكلَّم، فقد انشغل بتأبين الطمأنينة التي لم يرقها المقام بين جنبيه غير لحظات.

(*) 2005م.

زائر(*)

كانت أناقته لافتة، انسجام ألوان الثوب والحذاء والجورب، مع لون الأزرار، والحقيبة وإطار النظارات، والقلم المذهب، تشكَّلت هالة من حوله لم تستطع اختراقها ثقافة المعلم، ولا سعة اطلاعه، ولا خبرته بالرجال. وجد نفسه إزاء معلم متميز، لم يملك إلا أن يشكره ويثني على تلاميذه.

كانت زيارته الأولى لهذه المدرسة، وجد المعلم نفسه يفتتح الحديث معه بقوله: أهلًا يا دكتور. استقبلها بادئ الأمر باستنكار، فلما تكررت لان لها سمعه.

عند باب المدرسة، اشمأز عندما ودعه المعلم قائلًا: شكرًا لك يا أستاذ حسن.

(*) 2005م.

ميلاد(*)

تسللتْ إلى سمعه صرخاتها برغم الأبواب الموصدة، يعتصره لألمها الألم، يتشبَّث بالأمل، يقرأ التحذير المكتوب على الباب (ممنوع الدخول) تتهاوى صروح الأمل في عينيه، عندما دوَّت صرختها التي ظنها الأخيرة، أخذ العرق ينزُّ من جبينه، اختلط بالدموع، مرَّرَ منديلًا على وجهه، أرعبته لحظة السكون الطويلة تلك، بددتها صرخة الصغيرة هذه المرة، ناوشه الفرح، ليس يدري أهو الفرح لميلاد الصغيرة، أم الفرح لميلاد أمها من رحم الموت. نظر إلى أعلى، أخذ يغرق في فرحه الهستيري. وفجأة انتشله أبو العلاء المعري. فتنهد متمتمًا قاتلك الله يا أبا العلاء.

(*) 2005م.

(3)

أوشال حزينة

دار بيسان للطباعة والنشر ـ بيروت 2008م

إلى روح أمي الغالية..

إليها.. وقد كان مرضُها ورحيلُها الحزنَ الوحيد الذي سبَّبته لي في حياتي..

إليها.. وهي أجلى وأحلى صورةٍ للخيرِ والجمالِ، والمحبةِ والصبرِ

إليها.. وهي المثل في البذلِ والإيثارِ، والإحسانِ والمعروفِ.

إليها.. وهي المعنى للرحمةِ والمودةِ، والحكمةِ والرُّشدِ.

الوداع الأخير

في يومٍ حزينٍ من صيف عام 2005م، ألقيتُ النظرة الأخيرة والقُبلة الأخيرة على وجه أمي الطهور، وتمضي الشهور ولا أراها، وأنا الذي لم يفارقها طوال حياته سوى أيامٍ أو أسابيع على الأكثر، وتبقى ذكراها تملأُ نفسي، وتشغل قلبي في اليقظة، وطيفها يعتادني في المنام، فأراها مرةً ممتلئةً بهجةً، وأخرى متألمة، وأخرى حزينة، فتكون حالي إذ ذاك كحالها، حزنًا، أو ألمًا، أو بهجة.

وكلما جفاني النوم وأمضَّني الحنين فررتُ إلى قلمي وأوراقي، فنفثت عبرهما أوجاعًا للفراق لا يعرفها إلا من كوى الفراقُ جدرانَ قلبِه من الداخل، ويمضي عامٌ وما يزال الجرح غائرًا، تنكؤه كلُّ ذكرى تمرُّ بخاطري، فجمعت منها ما ضمت هذه الصفحات، لتبقى شاهدةً على لوعةٍ، ينقضي العمر ولا تنقضي، فتجمحُ أشواقي إلى لقائها وتقبيل كفها، وتأمُّلِ قسماتِ وجهِها الطهورِ. فعليها سلام الله ورحمته ورضوانه.

إبراهيم مضواح الألمعي

1427هـ ـ 2006م

ألمع

﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾

سورة الإسراء (24)

هزيمة(*)

افتقدتُ إملاءاتها المحببة التي قربتني من الناس، وكفتني مؤنة التفكير في كيفية الإحسان إليهم، وجعلتني أشاركهم في أفراحهم وهمومهم. تتصل بي أو أتصل بها كل يوم، أطمئن عليها وتطمئن على أخباري، تنقل لي أخبار إخوتي وأخواتي، وتكلفني زيارة مريض، أو المباركة بمولود، أو حضور زواج، أو مساعدة محتاجٍ. منذ غاب رقمها عن هاتفي غابت عني دعواتها التي تكتظ لسماعها نفسي بالطمأنينة.

قبل دخولها غرفة العمليات قالت: لا تمنعوا أحدًا من زيارتي بعد العملية مهما كانت حالتي، لا يجمل بكم ردُّ الذين يأتون للزيارة، قالت ذلك عندما سمعت في حديث الطبيب ما يوحي بمنع زيارتها بعد العملية.

استطعت بفضل العقود الأربعة تفهُّم سبب غيابها، هذا كل ما ميزتني به السنوات عن طفل رضيع يعتب على أمه حين تغيب، فيلقاها بعينين ملؤهما الدموع اللائمة.

(*) 2006م.

في العناية المركَّزة رأيتها تحيطها الأجهزة الطبية، وشاشات المتابعة، لم تكن نائمة ولا مستيقظة، لم تكن هي ولكنها تشبهها. ليست قوية كأمي بل خائفة ومنكسرة، أمي ليست كذلك. من خلال الدموع نظرتُ إليها، أمسكتْ بيدي، أرادت أن تتكلَّم فأصغيت، ترددتْ، استنهضت لسانها بمزيدٍ من الإصغاء. قالت: أرجوك أخرجني من هنا، من بين أصوات الأجهزة الطبية نفذت كلماتها إلى سمعي، ارتجف جسدي لهذا الرجاء الذي لم أسمعه منها قبل اليوم.

وعدتها بأن نخرجها بعد انتهاء عبيئة التغذية التي في وريدها، بقيتُ إلى جوارها أنظر إليها تارة، وإلى قطرات المغذية تتساقط أسرع مما يجب، أكاد أرجوها ألا تنتهي، أبحث في جدران الغرفة عن خلاصً من حصار موعدٍ لا بُدَّ لي أن أُخْلِفة.

عندما غلبها المهدئ خلَّصتُ يدي من بين أصابعها الواهنة، وانسحبت انسحاب الناكث الجبان، خرجت من غرفتها تجللني الهزيمة وشعورٌ بالخيبة لا يُطاق.

الجَنّةُ تحتَ أقدامِ الأمهات

حديث شريف

الغبار(*)

بلا اتجاه تسير بي سيارتي، توقفها الإشارة فتزداد حيرتي؛ أيَّ الطرق أمامي أسلك؟ يأخذني الطريق المؤدي إلى المستشفى، لم يطل انتظاري على بوابته، فالحراس الذين ألِفوني يرفعون الحاجز لمجرد رؤيتي كعادتهم عندما كنت أتردد عليهم في كل الأوقات، فأقضي داخل أسواره ساعاتٍ أركض خلف الأمل الذي يفر مني في الدهاليز والردهات، حتى إذا أوشكت أن أمسكَ به أفلتَ مني، وقبل أن يغيب يمدُّ لسانه ساخرًا، فأركض من جديد ولا أعثر له على أثر.

داخل الأسوار تقف بي سيارتي أمام النخلة الفارعة، أرقبُ سعفها الطويل تلهو به الرياح، تحتَ أشعة الشمس الساقطة على جهتها الغربية، في الاتجاه نفسه الذي كانت أمي ترقبه كلما دنا الغروب، حينما تعجز عن الالتفات جهة الساعة المعلقة على الجدار، كانت تحبها، وتفصح عن ذلك في ساعات إفاقتها: «هي صديقتي، تؤنس وحشتي، وتشي بقرب زيارتكم، وكلما أفقت من غيبوبتي قدَّرت في

(*) 2006م.

أي ساعة أنا» تعلَّقت عيناي جهة النخلة أتذكر حديث أمي عنها، هي الأخرى ترمقني بنظراتٍ لها معنى.

فجأة أحاطت بي وحشة قاتلة، دهمتني من كل الجهات، ذكَّرتني أن أمي غادرت هذه الأسوار؛ لم يكن المكان موحشًا عندما كانت هنا، ألفته كما لو كان بيتنا؛ هكذا هي دائمًا تجعل مكانها مألوفًا، برغم الحراس والأبواب التي تحول بيني وبينها، أجلس في كل مكان أقرأ وأشرب الشاي، وأتحدَّث مع الأطباء، مع الزائرين، مع عمال النظافة، مع الحراس، أشاركهم في أحاديثهم وهمومهم، لا أتضجر من طول الانتظار، بمرور الوقت أصبح الحراس أصدقائي، ذابت تجاعيد جباههم، يبتسمون، يقترحون أن أدخل لأراها وأخرج على الفور، تستخف الفرحة الطفل القابع في داخلي، لا ألتفت إلى المصعد، أقفز صاعدًا الدرج إلى غرفتها، تدير عينيها في وجهي؛ هل عرفتني؟! تريد أن تقول شيئًا ولا تقول، أستنهض لسانها؛ تقول ولكني لا أفهم، أتظاهر بالفهم، أُقبِّل يديها، وجهها، أمسح جبينها خدها الذابل، أصطنع شيئًا لأفعله، أعلم أنه بلا أهمية، أتذكر تحذير الحراس وتجاعيد جباههم، وحاجتي الدائمة إليهم، أستأذنها تومئ بالموافقة، أنصرف مهزومًا، أتهادى على السلم وقد تبدَّدت الفرحة التي ملأتني منذ قليل.

كنت أتمنى أن أكون صادقًا كلما قلت لها: «أنتِ

بخير، وستخرجين من هنا قريبًا» صدَّقْتُ كذبتي تلك مع أنها أصبحت لا تكترث لسماعها، تكبر الكذبة لتصبح أملًا، أسوق بحضرتها نكاتٍ مصطنعة فتشرق ابتسامتها على دنياي المعتمة، فيبدو الأمل حتى أكاد أراه بعيني.

منذ شهور عندما شخَّص الأطباء حالتها، قفزتْ إلى ذهني جملةٌ قرأتها لكاتب شهير، يزعم فيها أن السرطان وسُرادِقَ العزاء توأمان، ملأت هذه الفكرة رأسي، أفقدتني صوابي، عشت بخيالي مراسم تشييع أمي وعزائها، كنت أرثي إشراق وجهها كلما ضحكت، عشتُ يتيمًا وأنا أمشي بجوارها، وأُقبِّل يديها.

في السوق تتلفتْ في المعروضات، بينما أقف خلفها في موكبٍ جنائزي يحيطني فيه الموت من كل مكان، أتذكَّر حين كنتُ أمشي خلفها في طريقنا إلى بيت جدتي، فأضع قدميَّ الصغيرتين في مواضع قدميها، فيلفني الأمان، فلم لا أشعر بالأمان إلى جوارها اليوم؟!

ضاق صدري من أسوار المستشفى، تركت النخلة صديقةَ أمي خلفي، لم تنتبني الحيرة هذه المرة؛ فطريق المستشفى يؤدي إلى المقبرة، ترى أهي المصادفة؟ أم أنه يؤدي إليها حتمًا؟! لا فرق، فالنتيجة بالنسبة إلى أمي كانت واحدة.

لم تكن طريقها بهذه السهولة، فقد أضناها ركضنا في المطارات، وعلى طرق المشافي، لمستُ بقلبي مللها من

حياةِ الانتظار على أبواب العيادات، ومواعيد الأطباء، كنا نركض خلف الأمل؛ حتى إذا كان الإمساك به وشيكًا، إذا نحن نركض خلف الموت الذي يعبث بنا ويتسلى بدهشتنا وغبائنا.

دقائق وتغيب عني أشباح المستشفى التي ألمحها خلفي عبر المرآة، لا حراس ولا أبواب للمقبرة، الشواهد تحدِّقُ فيَّ، وكأنها تشي بما ترى لمن وراءها، من الجنوب أقطع المقبرة إلى أقصى شمالها، عند الصخرة الباركة على جذع شجرة السَّيَال ترقد أمي، لا بدَّ أنها تحسُّ وجودي، وتشعر بدموعي، ترى هل تريد أن تقول شيئًا ولا تستطيع؟

شهر مضى منذ غاب عني وجهها هنا، يومها غبت عن الوجود أو هو غاب عني، لم أكن باكيًا ولا حتى حزينًا، كنت بلا مشاعر، كنت فقط أريد أن أذودهم حتى لا يهيلوا التراب عليها، ويثيروا الغبار حولها، وكأنهم لا يعلمون أنه يؤذي رئتيها المنهكتين، ومع ذلك يعلو الغبار.

أغادر المكان المكتظ بالمشيعين منذ قليل، أتركها خلفي هنا، يملأ نفسي شعورٌ بأنها الآن سعيدة، أن آلامها غابت عنها كغيابها عن دنيانا، كنت أشعر أنها لا تحتاج إليَّ ولا إلى صديقتها النخلة، فالوقت لم يعد يرهقها، كنت متأكدًا أني سأراها ثانية، برغم الغبار الذي يجلِّل المكان.

سأراها ثانية برغم المعزِّين الذين يحاولون بتعزيتهم إقناعي بأنها ماتت، فأتقبَّل تعازيهم ببلاهة مع أني سأراها،

يقول لي جرس الباب: «جاءت تسبقها ابتسامتها وتعاويذها» أفتح الباب فيدخل المُعَزُّون، يرن الهاتف يقول: «أجبها» ليملأ صوتها الدنيا وهي تسأل عن الأولاد، فيقطع صوتَها صوتُ أحد المُعَزِّين.

رحلتْ أمي كما ترحل الشمس، وتعود الشمس ولا تعود أمي، ويطول غيابها، أرفع سماعة الهاتف لأحدثها، لأبشرها، لأخبرها، لأسألها، فتصفعني ذاكرتي، ويندلق الغبار على وجهي، فتموت البشارة، وتحار الأسئلة ولا إجابات، ويأتي رمضان، ولا تأتي، ويأتي العيد، ولا يأتي عيدي الذي كنت أراه في وجهها، وتغيب البهجة وأمي، وتغيب رائحة الطيب الذي يُضمِّخ رأسها، وتُقفر أحواض الرياحين، وتذبل ورودها في كل زوايا الدار، وتيبس الزهور في أوانيها ولا من يُبدِّلها، ويعلو الغبار، وتغيب ملامحها، ويخبو الجمال، ويعلو الغبار وأعيش بنصف وجه، وتهطل الدموع فيسكن الغبار، وتتماهى صورتها في سحابة بيضاء تملأ السماء، تبدو واضحة كلما سكن الغبار تحت وَشَلِ الدموع.

«لو أن العالمَ كلَّهُ في كفَّةٍ،
وأمي في الكفَّةِ الأخرى،
لرجحتْ كفَّةُ أمي»

لورد لانجديل

العودة إلى لا مكان(*)

ينتزعه السفر من أحب الناس إليه، ويأخذه من أشيائه التي ألفها. في المطار يتسلى بالتدخين وشرب القهوة ويغمس رأسه في جريدة أو كتاب في انتظار الإقلاع، ويستمتع بكتابة يومياته في الطائرة، وقراءة يومياتٍ كتبَ أكثرها في الطائرة، فحين ينهمك في حياته اليومية ينسى تسجيل ما يدور حوله، ويتذكر ذلك عندما يهيئ حقيبته لسفر جديد.

يسافر دائمًا وقلبُه يتلفتُ وراءه، ولا يكاد يبلغ غايته حتى يشده الحنين، يسبقه خياله فيتصور لحظات لقائه بمن يحب وبما يحب، تملأ سماءه عصافير الأشواق، وتقلُّهُ سحابة تتشكل بملامح الوجوه التي أحبها.

في أسفاره السابقة كانت تترقب عودته، يشتاق إلى فرحها بعودته، فيستعجل رؤية فرحتها؛ تداري عنه دموعًا لا تشبه دموع الوداع.

من أسفار كثيرة عاد إليها، وحين تصحبه يسافر معه

(*) 2006م.

المكانُ وكلُّ الناس، فإليها تتجه بوصلة أشواقه؛ عنها يسافر، وإليها يعود أينما كانت.

في طريق العودة، لم يكن سعيدًا هذه المرة، يشرب القهوة وينفث مع دخينته رائحة الحزن، ويغمس رأسه في الجريدة، تحجبُ حروفَها دموعٌ واقفة في عينيه.

برغم أنه في طريق العودة؛ كانت أشواقه هامدة، والألوان من حوله باهتة، فقد سافر معها وعاد بمفرده، بنصف قلبٍ، إلى لا مكان ولا أحد.

«في العالم شخصٌ واحدٌ
خيرٌ من الزوجة: الأم»

شافر

غناء(*)

أسند رجليه إلى الطاولة وغطس في المقعد وشبك أصابع يديه خلف رأسه، وأنصت يستمع إلى أغنية يكرر سماعها عندما تسافر أفراحه، وتحط أَغْرِبَةُ الحزنِ على شرفات نفسه.

تهيبت صمتَه فشاركتْه في الاستماع والصمت، تجاهلتْ دمعة سرعان ما سحقها بباطن كفه، حاولت أن تنتزعَه من صمته، قالت: لم تنجح الأغنية في تسليتك!

تأوه والتفت إليها، فشعرتْ أنها قد نجحت في استدراجه إلى الكلام، وهو يسألها: وهل تظنين أني أتسلى بسماعها؟! إنكِ تخلطين بين الغناء والبكاء، كل ما في الأمر أني كنت أبكي على المقامات، تظلمينني كما نظلم الطيور عندما نلتذ ببكائها، ونسمي أزيز صدورها تغريدًا، فقط لأننا لا نحسن التمييز بين نشيدها الجميل ونشيجها الحزين، إننا نُلْبِسُ الأصواتَ ثوبًا من مشاعرنا، عندما نسمعُها بأرواحنا لا بآذاننا. حتى الحزن يمكن أن يكون

(*) 2007م.

جميلًا عندما يرتقي إلى درجة من التأمل وإعادة النظر في ترتيب الأشياء من حولنا. عدلتْ جِلْسَتِها تستمع إليه وهي تشعر أنها قد انتصرت على صمته.

«أعظمُ كتابٍ قرأته أمي»

ابراهام لنكولن

المستنقع(*)

أمي تقفُ إلى جوارِ النافذة، تحرك الستارة الشفافة برفق، ينسربُ الهواءُ الباردُ يملأُ الغرفة، بعيني طفلٍ أنظر إليها، أرغبُ في مشاركتها في النظر إلى المطر يكسو الجبالَ أمامنا، أقتربُ من النافذة، أنظر إلى الدوائر التي تبعثرها القطرات في المستنقع، تصغُر النافذة، أتلمَّس الستارة، أمي لم تعد بجوار النافذة، المستنقع يكبُر، دوائر المطر على وجه المستنقع عيونٌ تُحدِّق إلى وجهي، الجدار يمتدُّ على أطراف النافذة، الجدار يبتلع النافذة، برغم الجدار الواقف بيننا، تحدِّق إليّ العيون الطافية فوق وجه المستنقع، عينايَ تطفوان في المستنقع أيضًا، أتلمَّس وجهي، عيناي لم تعودا هنا، أمي لم تعد بجوار النافذة. لم تعد هناك نافذة، وجهي أيضًا لم يعد هنا، عيناي هناك في المستنقع، تنظران بغير اتجاه إلى النافذة التي لم تعد هنا، المستنقع يوشك أن يغمر الجدار، أمي لم تعد هنا، المستنقع يحيط بي من جميع الجهات، أبحث عن النافذة، أبحثُ عني، تمضي الأيام ولا أجدها، ولا أجدني، ولا أجد أمي.

(*) 2007م.

لم أطمئن قطّ
إلا وأنا في حِجْرِ أُمِّي

سقراط

فقد(*)

الحزنُ يغمرُ غرفتي، الضوءُ الخافتُ يبعثرُ الأشجان في زواياها، كتبي حزينةٌ مستكينةٌ، على جمرِ الذكرياتِ يتقلَّبُ قلبي، تلسعُهُ نارُها، تَسْقِي دموعي لهيبَها، الساعةُ يثقل خطوها سكونُ اللَّيلِ الرهيب، يتسربُ عبرَ النوافذِ المُحكمةِ، يقتحمُ الصمتُ غرفتي، فلا أحتملُ صَخَبَهُ، لحنٌ باكٍ، رقصَ حزني على أوتارِه، وفي دموعي غرقتْ أنغامُه، أبكي أيامَ كانَ حضنُ أُمي مأمَنِي؛ يَسْتَلُّ مخاوفي، ويملؤني طمأنينةً، فأنَّى لي به الآن؟!

(*) 2007م.

«لا توجدُ في العالمِ
وِسادةٌ أنعمُ مِنْ حِضْنِ الأُمِّ»

شكسبير

خيانة وردة(*)

كانت تحب الورد، ولا أشك في أنه كسائر الزهور والعطور يحبُّها، طالما اعتنت بأحواض الزهور وقلَّبتُ بيديها ترابها، وفتتت ما تماسك منه، ثم ترش الماء فوقه برفق، وتوزعه في الآنية المهيأة له في زوايا الغرف والصالات، وتقطف منه للضيوف عند وداعهم.

لم أر أحواض الورد يومًا مقفرة في حياتها، ومنذ غابت ذبلت نباتاتها المدلَّلة، وأمستْ أوراقُها هشيمًا تذروه الرياح في جنبات المكان، فقد ذبل كل شيء في حياتنا، وأمسى الجمالُ هزيلًا في عيوننا، لقد فقدنا الثقة بكل شيء حتى بالحياة نفسها، كان شعورُنا متشابهًا برغم اختلافنا في أشياء كثيرة، كان غيابها صدمةً حتى للزهور التي سرعان ما ذَبُلَتْ، وتساقطتْ دون أن يلتفتَ أحدٌ إلى معاناتها، وقد تبدَّلتْ هشيمًا، لم نأبه له فقد كان الهشيم يملأ دواخلنا.

غابتْ تلك الأصابع التي تنثر الماء برفق فوق الزهور، وغاب ذلك الوجه الذي يرش البهجة في نفوسنا.

(*) 2007م.

أمستِ الأحواضُ شواهدَ على حياة زاهية كانت هنا، ودليلًا على ما آلت إليه تلك الحياة.

من على حافة الحوض الفخاري، مالت نبتة خضراء تكورت على طرفها وردة، كَبُرتْ في غفلة منَّا، تمدَّدتْ، أطلَّتْ بوجهها الأصفر. نظرتُ إليها بكل اتساع عينيَّ، لم تأبه لنظراتي، لم تكسُ صفرتَها حمرةُ الخجل، قبضتُ بيدي ساقها النحيل، اقتلعتها من جذورها وألقيتها ومعها زمن النكران الممتد حتى على مياسم الزهور.

لولا التقى لقلتُ لم
يخلقْ سواكِ الولدا

شوقي

حقد(*)

خَلَقَ الحرفُ بيننا علاقة لم تلبث أن أصبحت صداقة متينةً، إلا أن فرق السن لم يسمح لي برفع الكلفة بيننا تمامًا، فقد كان يكبرني بمثل نصف عمري، وكان في نظري كشجرة وارفة تنحني أغصانها باتجاه جذورها، فكلما عبرت سنة جديدة على وجهه يزداد حنينه إلى الماضي.

عندما رحلتْ أمي وخلفتني مع كل محبيها، شعرتُ أنه يدرك تمامًا حجم الفراغ المحشو حزنًا يملأ نفسي لغيابها، إلا أنه كان يتمادى في حديثه عن أمه كلما لقيني أو حدثني «يعتذر لتأخره بأن أمَّه قد طلبتْ منه أن يشرب الشاي معها قبل الخروج، وكثيرًا ما ينصرف عند لقائنا مبكرًا بحجة أن أمه تنتظره ليشاركها في العشاء ومشاهدة المسلسل العربي».

كان حديثه الدائم عن أمه يملؤني غبنًا، وشعورًا بالحرمان، فأركضُ به نحو مسارب أخرى للحديث، فيعود إليه مع أنه يشعر بأثر حديثه فيّ، ويدرك أنني أشعر أنه يتعمد ذلك.

(*) 2006م.

ذات حديثٍ عن أمه سألته مظهرًا عدم اكتراثي: ألا تشعر بأن حديثك الدائم عن أمك، يؤذيني؟!

كنت أعلم أنه يشعر بذلك، وما كنت لأصدق أي جوابٍ غير الاعتراف، ولكنه فاجأني بقوله وهو ينفث الدخان مع أنفاسه باتجاهي:

ـ أشعر بذلك.

ـ ولِمَ تحاول إزعاجي إذًا؟!

ـ أريد أن أعلِّمك كيف تحقد عليَّ؛ فهل نجحتُ؟

ـ الآن فقط نجحتَ، كنت أحسدك فقط، واليوم أحسدكَ وأحقدُ عليكَ أيضًا. هل استرحتَ الآن؟!

ـ لا بأس يا صديقي، إني أستطيع أن أطفئ حقدك كما أطفئ سيجارتي هذه، قالها وهو يغمس وقدة سيجارته في كوب الشاي نصف الممتلئ.

ـ لا أظن ذلك، قلتها ومنظر عقب السيجارة الطافي في كوب الشاي يستفزني.

ـ ستنطفئ نارُ حقدِك تمامًا عندما تعلم أن أمي ماتت قبل أن أتعرف إليك بسنين، ولم أستطع رثاءها ببيتِ شعرٍ واحد، فهي تملأ حياتي، وذاكرتي، ولا أغفو لحظةً واحدة إلا رأيتُها، وربما حدثتُها، أو حدثتني، تبدو أحيانًا سعيدة، وأخرى حزينة، وأخرى مريضة، وأخرى صحيحة، إنني

أخشى لو اعترفت بموتها أن تحرمني حتى من طيفها في المنام، قالها وقد تهدج صوته، وذرفت عيناه، ولم أملك إزاء دموعه التي أطفأت حقدي إلا دموعي التي أطفئ بها لوعتي بين حينٍ وحين.

«لن أسميكِ امرأة،
سأسميك كل شيء»

محمود درويش

نجمتي الأثيرة(*)

ـ هذه أمي، تُطِلُّ على الدُنيا بوجهِها الملائكي. عيناىَ لا تُخطئان ملامحَها، لقد بزغتْ في الليلة نفسها التي غابت فيها أمي، إني أسمعُ كلماتِ أُمي مع ارتعاشات نورها. إنَّها تُوجِّهُ كالعادةِ نصائحَها، ودعواتِها.

ـ بل هي نجمةٌ تقتَعِدُ مكانَها بين النجومِ منذُ آلاف السنين.

ـ انظروا إليها؛ إن نورها لا يشبه نورَ النجوم، إن في سطوعها معنى مختلفًا. إنَّها أُمي. فلم يكن معقولًا أن تغيبَ عنَّا إلى الأبد، لا بُدَّ أن تبقى رعايتُها، ودعواتُها، ونظراتُها تتفقَّدُ وجوهَنا، فهي التي عبرتْ بنا نحو الحياة، ومنحتْنَا معناها الذي يُشِعُّ من رضاها، فكيف تسلِبُنَا هذا المعنى؟! إنها لم تبخل علينا يومًا بشيء.

سرعان ما يتسربُ اليأسُ منه إلى نفوسهم، فيتركونه في ذهوله الصوفي، تاركًا الدُنيا وراءه، يناجي نجمته الأثيرة: «يا أمي ها أنتِ تُشِعِّينَ بالحب والخير والجمال،

(*) 2007م.

حتى أصبحتْ معالمُها مواثلَ أمامي وإن لم أصل إليها، ها أنا بعد عامين ولمَّا أُفِقْ بعدُ من دهشةِ غيابِكِ، أراكِ كلَّ مساءٍ نجمةً ساطعةً بين النجوم، يتعلَّقُ بكِ نظري، وحين تحتجبين أشعر أنك أويتِ إلى النوم، وأنكِ تغيبين عنِّي توًا.

عندما تكون السماءُ صافيةً، أسمعُ وصاياكِ تسْبَحُ في السَّدِيم، فأُصِيخُ إليها بقلبي، وتنتفضُ ذاكرتي وتحضرين. وعندما تُذيب الشمسُ الظلام، تَخْلُدِين إلى الراحة، حتى إذا ألقى المساءُ بالشمسِ وراء الأفق، كانتِ الدُنيا معكِ على موعد، فأولِّي وجهي شطْرَكِ، وتصلني كلماتُكِ برغمِ سُجُفِ الليل.

ها أنتِ ـ كما كنتِ دائمًا ـ تملئين نفسي بالطمأنينة والرضا، وأنت تختصرين كلَّ النجوم، فاملئي روحي نورًا، ما شاء لها الشوقُ أن تنظرَ إليكِ.

منذُ عامين وعيناي معلقتانِ بالسماء، منتظرًا أن تمُدي يَدَك أيتُها النجمة الزاهية لتذوبَ نفسي في قُبلةٍ أودِعُها كَفَّكِ المُخضَّبَةَ دائمًا بالحناء، فهل تفعلين. لن يطول انتظاري، فأنت دائمًا تسبقينني إلى أمانيَّ، وإني أثقُ أن هناك ما يحول بينك وبين ذلك، وإلا ما كنتِ لتخيبي لي أملًا».

عبثًا يحاولون إقناعَهُ أنَّ هذه النجمةَ قديمةٌ في السماء، بينما يُصِرُّ أنها لم تكن هناك، «بل هي أُمي تُطلُّ علينا من بين النجوم».

لفرط تعلُّقه بها شعروا أنهم قد فقدوا مع أمهم عقل أخيهم، ولكثرة ما جادلوه، شعروا ألا فائدة من كلامهم الذي يذهبُ هباءً، فيكتفون بمشاركته في النظر إليها، حتى تعلَّقت قلوبهم بها، وتبعتها عيونهم، وها هم، يغفلون عما حولهم، ويستقبلونها كُلَّ مساء.

(4)

حديث الرخام

نادي الشرقية الأدبي ـ الدمام 2008م

اليومُ الذي لم يرحل(*)

وحدي هنا في شرفةِ بيتي الريفي، أنظرُ إلى النَّاسِ يعبرونَ الطريقَ أمامي، أراهم منذ يلدهم الطريقُ حتى يبتلعهم المغيب، تعودتُ أن أرقبَ الأيام تمضي مع الناس باتجاهٍ واحدٍ.

ترمقني الأيامُ بنظراتِها المريبةِ دون أن تقفَ، أما الناسُ فيتحدثونَ، أسمعُ حديثَهم، ولا تجاوزُ عيونُهم حدودَ الطريقِ، لم أعُدْ آبه كثيرًا للعابرين، أنصرفُ عنهم جميعًا إلى شأني، يعبرون وأنا أحتسي الشاي دون توقف، أو أقرأ كتابًا فلا أرفعُ عنه بصري، برغم ضجةِ العابرين، وعيونِ الأيامِ التي كانتْ تزعجني فيما مضى.

عاودني ذلك الشعورُ بالانزعاجِ، عندما لاحتْ مني التفاتةٌ إلى الطريق فرأيتُ يومًا شاخصًا يحدِّق إلى وجهي، لم يكن يشبه الأيامَ التي مرَّتْ من هُنا، حاولتُ الإفلاتَ من عينيه فعجزتُ، تشاغلتُ عنه، وما يزال ينظرُ إليَّ، غادرتُ الشرفةَ إلى حجرتي، أغلقتُ الباب، نظراته تلاحقني،

(*) 2007م.

أغلقتُ النافذة، أسدلتُ الستارةَ الكثيفة، أطفأتُ الأنوارَ، ما يزالُ يلاحقني بنظراتِهِ، التحفتُ بالبطانية الكثيفة، ثنيتُ المخدةَ على رأسي، شددتُ عليها بكلتا يديَّ حتى التقى طرفاها، وما تزالُ نظراتُه تحاصرني، فَرَكْتُ عينيَّ، غادرتُ الفراش، خرجتُ إلى الشرفة، فإذا هو واقفٌ في مكانِه، قد اتسعتْ عيناه، ألمحُ صورتي فيهما، تمضي أيامٌ أخرى من حولِهِ مطرقةً، أردتُ أن أصرخَ، ترددتُ لكي لا تفعلَ بقيةُ الأيامِ فعلَه.

بادلتُهُ التحدِّيقَ إلى عينيّ الصغيرتين الغائرتين، بدا غائمًا؛ هزيلًا، متوجسًا، اقتحمتْه نظراتي، لم يكن يومًا كاملًا، إنه بعضُ يوم، تقذفُ عيناه باتجاهي لحظاتٍ، في كلِّ لحظةٍ صورةٌ لوداعٍ أسبوعي، تكرَّرَ منذُ عرفتُ الحقيبةَ المدرسيةَ؛ المحشوةَ بسنواتٍ من العمرِ، ركضتُها خلفَ المستقبلِ الذي لا ينتظر.

حديثُ الرّخَام(*)

أمامَ بوابةٍ عريضةٍ، زاهيةٍ، تثاقلتْ قدماه، وشدَّ عينيه الفضول، ليُمعِنَ النظرَ في الزخارفِ الرُّخاميَّة التي تحيطُ بالمدخل، ويستمتعَ بمنظرِ ما لم يستطع السورُ الجميلُ أن يحجُبَه، من الشجرِ السَّامقِ، وألوانِ الزهورِ، وشُرُفَاتِ (الفيلا) التي تتوسَّطُ غابةً من الأشجار والممراتِ، والأضواءِ الملونة.

التفتَ إليه صاحبُ (الفيلا) وهو يقتربُ بسيارتِه الفارهةِ من البوابة، توقَّع أن يستنكرَ وقوفَه قُرْبَ منزلِهِ، ولكنَّه لم يتوقف، ارتفعَ الستارُ الحديدي عن المدخل، أدار عينيه داخل السور، مذهولًا لجمال الحديقة، وامتداد المَمَرِّ الطويل المُغطى بعريشِ العنب، الذي يؤدي إلى موقفٍ قريبٍ من المدخل الرئيس، تتوسطُه نافورةٌ رخاميةٌ مستديرة.

تمنى أن يبقى البابُ مفتوحًا ليستمتع بمشاهدة الحديقة، التي لم يرها من قبل، كانتْ عيناه معلقتين جهةَ البوابةِ المغلقة، اكتفى بالنظرِ إلى الشجيراتِ المتدلِيَةِ فوقَ

(*) 2007م.

السُّور، تكادُ تحجب الواجهة الرخامية، التي تحيط بالبوابة.

إلى يمين الباب قطعةٌ من الرخام، لها لون يمتاز عن لون الواجهة، محفورٌ عليها بخط الثلث الأسود: (هذا من فضل ربي) شعرَ بشيء من الخجل؛ «لا بدَّ أن الرخام يجيب بهذه العبارة على كل الفضوليين والحاسدين الذين يرددون دائمًا: (من أين لك هذا؟)

لا بدَّ أنه ظنَّني من أولئك، ليته يعلم أنني أيضًا لا أحبُّ هذا السؤال، كلما أريد أن أعرفَهُ: كيف أحصل على مثل هذا؟».

عادة(*)

تحتَ لهيبِ الظهيرة يترنَّح الشارعُ المثقَلُ بالسياراتِ؛ تتململُ أمام الإشارة الحمراء، يمتد طابورُ السيارات خلفنا إلى ما لا تدركه المرآة المثبَّتةُ على الزجاج الأمامي.

تَخْضَرُّ الإشارةُ، يضربُ بيده على المنبِّه، يتصل صوت المنبِّه الحاد، يبدو عصبيًا، لم يتحرك برغم ما يبدو عليه من الاستعجال.. تحرَّك، فقط، عندما ذكرته أنه يقف في المقدِّمة.

(*) 2007م.

الميزان(*)

قرأتُ كتابًا رائعًا عن أساليبِ إنقاصِ الوزن، تضمَّنَ أفكارًا مختلفةً، وجداولَ غذائيةٍ دقيقةً، وتمارينَ رياضية. لا بأس بقراءة كتابٍ آخرَ في هذا الموضوع، فقد استهوتني النتائج المذهلة، التي يتوقعها المؤلف.

لما فرغتُ من قراءة الكتاب الثاني، ارتقيتُ الميزانَ ببهجة، سرعان ما تبددتْ، عندما وجدت المؤشِرَ يشيرُ إلى الرقمِ القديم نفسه.

(*) 2007م.

الشمس تخلف موعدها(*)

عندما تخلفُ الشمسُ موعدها، فسيكون هناك ما يمكن قوله لها عندما تأتي، فكَّرَ في عتابِها، لومها، انتابه سرورٌ لعدم حضورها فهي تلوِّحُ قلبَه بوهجِها، ولكنَّهُ اعتادَ هذا الألم، حنَّ إليه.

مِنْ وراء الأفُقِ تُطِلُّ عليه دائمًا، لمَّا تأخّرتْ، تردَّد هلْ ينتظرُها أم يسافرُ إليها، قرَّرَ الانتظارَ، تململَ، يحتلُّ قلقُه مكانَ النَّوم في عينيه، يُحرِقُهُ الانتظار، تتعلَّق عيناه بالسَديم، يحاولُ تمييزَ الحدِّ الفاصلِ بين الأفق والسماء.

تحاصره الوحدةُ، تملأُ جنباتِ نفسِهِ وحشةُ الأفقِ الشاحبِ، والليلِ الداجي، يمدُّ بصرَهُ فلا يرى إلا الظلامَ، وطوقَ الغيم الذي يملأُ سماءَهُ، تحتويه ذاكرتُه التي لا تغادرُ من الأحزانِ شيئًا، فينساقُ وراءها، مسافرًا في مهبِّ الذكرياتِ، تعبثُ بقلبِهِ، تنكأُ جِرَاحَهُ، تعرضُ أفراحَهُ التي أَفَلَتْ.

عندما أطلَّتْ بصوتِها المنسكِبِ بحنانٍ في أُذُنِهِ، ينفذُ

(*) 2008م.

إلى قلبِهِ، يتلفَّتُ حولَه، فإذا الأفقُ يمتدُّ، والدنيا تبسمُ له، والغيمُ ينشقُّ عن قمرٍ يُبَدِّدُ العتمةَ، وإذا نفسُهُ تغسلُ أحزانها برذاذِ الفَرَحِ، يصرخُ قلبُهُ، فتسكتُهُ، يُنصتُ، ينزوي قلبُهُ مختبئًا، يَرْقُبُ المكانَ المُكْتَظَّ بأريج غنائها، يحضر صوتها ويغيب قلبُهُ الصامتُ، وعقلُهُ الذي لا مكان له في حضورها.

دينا(*)

سَبَقَتْهُ إلى قراءةِ الرسالةِ الواردة، تغيرت ملامحها، ألقت الهاتفَ بعنف، وهي تبكي بحرقة، سألَها عن الرسالة، لم تُجب، أخذ يجمع أجزاء الهاتف، أعاد تشغيله، بحث عن الرسالة، قرأها: «عزيزي: سأنتظرك عند السابعة مساءً أمام محل المفروشات».

ـ أهذه الرسالة التي أزعجتكِ؟!

ـ تقرؤها أمامي ولا تستحي يا خائن؟!

ـ وماذا فيها لأستحيَ منه؟!

ـ مَنْ (دِينَا) هذه؟

ضحك وهو ينطق لها اسم المتصل (دِيَنَّا) هذا رقم سائق (الدِّيَنَّا) الذي سيحضر لنا غرفة النوم التي وعدتك بها، قالها مزهوًا بالانتصار.

(*) 2008م.

التوأمان(*)

لفرط التشابه بين خالدٍ وعمرَ يخلطُ المعلمون بينهما فينادون أحدَهما باسمِ الآخرَ، بينما يستطيعُ زملاؤهما في الصفِ التفريقَ بينهما من خلال طريقتهما المختلفةِ في الكلامِ وفي الحركةِ، كان خالدٌ هادئًا، أما عمرُ فكانَ سريعَ الكلامِ، كثيرَ الحركةِ، دائمَ التَّلَفُّتِ، بهذا كان القريبون منهما يميزون بينهما، برغمِ الشبَهِ الكبيرِ بينهما حتى في الملبسِ وطريقةِ الحلاقةِ، فأبوهما يتحرى العدلَ بينهما في كلِ شيءٍ، برغم أن قلبَهُ يتجِهُ دائمًا نحو خالدٍ، مهما حاولَ إخفاءَ ذلك، أما أمُّهما فكانتْ مغرمةً بنزقِ عمرَ ورعوناتِه.

كلما أتلَفَ عمرُ دُماه أو عبِثَ بشيءٍ ـ وكثيرًا ما يفعل ـ بينما لا تزالُ نظيراتُها عندَ خالدٍ جديدةً، تنطلقُ المقارناتُ بين عبثِ عمرَ وعنايةِ خالدٍ، كانت هذه المقارنةُ حافزًا لخالدٍ أن يزيدَ اهتمامَه بأشيائه ويعتنيَ بها، ويرعاها، بل يحرمَ نفسَه الاستمتاعَ بها لتبقى جديدة.

(*) 2006م (للأطفال).

كثيرًا ما يأتي خالدٌ ـ يُخفي تَشَفِيَهُ ـ يحملُ دمى أخيه المكسورةَ أو حذاءه المقطوعةَ، أو ثوبَه المتسخَ، أو دفتره الممزوقَ إلى والده ليسمعَ المقارنةَ بين عبثِ عمرَ وعنايةِ خالدٍ بأشيائه. كانتْ هذه المقارنةُ تستَخِفُّ خالدًا طربًا حتى تبلغَ به أن يشجِّعَ عمرَ على تكسيرِ دماه واكتشافِ العجائبِ التي بداخلِها.

أدركَ عمرُ أن خالدًا يقتربُ من قلبِ أبيه على حسابِهِ، ولكنَّهُ لم يكترثْ، فكلُّ تهديداتِ والدِهِ لا تتحقَّقُ، تصدُّها الرجاءاتُ والقُبَلُ والاستعطافُ، ووساطةُ الأمِّ، كان ذلك يُزعجُ خالدًا كثيرًا.

كانتْ مكافأةُ النجاحِ من الصفِ الرابعِ بديعةً وثمينةً: سيارةُ تُشْحَنُ بالكهرباءِ، يمكن ركوبُها والتحكُّمُ في مسارِها من داخلِها، شَكَرا والدَهُما وبدءا الحركةَ بها في الصالاتِ والغُرفِ، وحتى في الفناءِ الخارجي، كانتْ فرحتُهما بها لا توصفُ، حتى عمرُ ابتهجَ بها بخلافِ كلِّ الدُّمى السابقةِ، بدأ يمسحُها، ويعتني بمكانِها، يوقفُها إلى جوارِ سريره، كان هذا غيرَ معهودٍ من عمرَ، عجِبَ له خالدٌ، وقررَ أن يؤجلَ اللِّعِبَ بسيارته تمامًا حتى يُتلِفَ عمرُ سيارتَه، وعندئذ يستَمِتُعُ باللَّعِبِ، ويستمتعُ بالتميُّزِ عن أخيه، ويستمتعُ بالثناءِ المعهودِ من والدِه.

كثيرًا ما كان عمرُ يلعبُ بسيارتِه بينما يجلسُ خالدٌ يرقبُه ويتخيَّلُ المُتْعَةَ التي يعيشُها، ولكنَّ موعدَ اللعبِ الأكثرَ

متعةً لم يحنْ بعدُ، يتمنى أن يُشاركَ أخاهُ في اللَّعِبِ ولكنْ بأي حُجَّةٍ وسيارتُه مغطاةٌ إلى جوارِ سريرِه، ثم إن عمرَ سيُطالِبُهُ بمثلِ ذلك لاحقًا، فآثرَ الاشتغالَ بدماه القديمةِ فلن يطولَ بقاءُ سيارةِ عُمَرَ.

بينما كان خالدٌ نائمًا قرَّرَ عمرُ أن تنالَ سيارةُ خالدٍ قسطًا من لَعِبِهِ، فوضعَ سيارتَه في مكانِها، وكانتا تتشابهان تمامًا كتشابهِ عمرَ وخالدٍ، ما جَعَلَ والدهما يكتبُ اسمَ كلٍ منهما على مقعدِ سيارتِهِ، قطعًا لنزاعاتٍ متوقعةٍ.

ركِبَ عمرُ سيارةَ خالدٍ وأخذَ يلعبُ بها بشكلٍ لا ينِمُّ عن حرصٍ، على صوتِ صريرِها في الغرفةِ أفاقَ خالدٌ، نظرَ إليه مبتسمًا، ثم قالَ: أنتَ تقودُ السيارةَ أفضلَ منِّي.

قال عُمَرُ: طبعًا وأنتَ تكنِزُها ولا تلعبُ بها.

قال خالدٌ: أنا لا أكنِزُها ولكنَّه الكسلُ يا أخي.

رأى خالدٌ أن هذه البدايةَ مناسبةٌ فتمطى على سريرِه، ثُمَّ اقترحَ أن يُتِمَّا اللعِبَ في الشارعِ، وافقَ عمرُ على الفورِ؛ في الشارعِ بدأ الاثنان يتناوبان على اللعب بالسيارةِ، ويقودانها دون رحمةٍ، استمتعا باللعبِ حتى تسربَ الملَلُ إليهما، عندها اقترحَ خالدٌ أن يكشفا عن محركاتِها ليعرفا كيفَ تختزنُ الكهرباءَ، وافقَ عمرُ أيضًا، وشرعا في تفكيكِ أجزاءِ السيارةِ، كان خالدٌ يتخيلُ سيارتَهُ الجديدةَ وهو يساعدُ على نزعِ الأجزاءِ القويةِ، وبينما كانا يحاولان خلعَ

المقعدِ من مكانِهِ قرأ خالدٌ اسمَه مكتوبًا على المقعدِ، انطلقَ دونَ أن يتكلَّم إلى غرفتِه، رفعَ البطانيةَ؛ حدَّقَ إلى المقعد ليجد اسم عمرَ عليه.

دهشة(*)

تتسعُ فوهةُ البندقيَّة وهي تقتربُ من عينيه المحدقتين، لاستيعاب المشهد، والإصبعُ المرتعشةُ تلامس الزناد، والوجهُ المُبلَّلُ بعرقٍ يتصَبَّبُ من كُلِّ مساماتِه، يُرَدِدُ كلماتٍ تتعثرُ بلسانٍ أثقله الشراب، وعينين زائغتين أرهقهما الغضب. كانت المرةَ الأولى التي تُصَوَّبُ البندقيةُ جهةَ صدره.

لم يتحرك لسانُه، الذي عقلتْه الدهشةُ، بدا له ابنُه الواقفُ أمامه يُعابِثهُ، بواحدة من البنادق التي طالما أحضرها له ضمن شتى اللعب.

كان يشاركه في فرحته كلما أحضر له لعبةً جديدة، تقترب فوهة البندقية، يبتسم وهو يحتفلُ بيوم صغيره الأول في المدرسة، حزنٌ ينتابه كالذي يتملَّكُهُ كلما أصابت صغيرَه الحُمى.

الفرحةُ التي غمرته ليلةَ زواج ابنه، كانت أعظم الفرحَات، كان يوشكُ أن يبتسم، ثانيةً، وهو يتذكَّر تلك

(*) 2007م.

الليلة، عندما لامستْ فوهةُ البندقيةِ الباردةُ حنجرتَه الساخنة، لم يكن بوسعه الابتسام، الدمُ يملأ فمَه، لم يعرف بعدُ هل ابنُه يعابثه، كما كان في صغره، أم أنه يموت حقًا، ماتَ وما تزالُ الدهشةُ في عينيه.

شجرة الكينا(*)

ينحني عمودُ النُّور يحدِّق جهةَ الشابِ الجالسِ تحتَه، في موهنٍ من الليل، يطالعُ عدد مايو 1987م من مجلة العربي، بين الحين والحين يرفعُ رأسَه عن صفحات المجلَّة، ليتناول كوبَ الشاي، أو ليغيِّرَ جلسته، أو ليجيل نظره في أفقٍ من الظلام، اجترحته أضواء الشوارعِ والمنازل، فحرمته أن يوغلَ بنظره في ظلامٍ لا ينتهي كما يحلو له.

إلى جوارِ شجرة الكينا تجلسُ العجوزُ تُحدِّق باتجاه الأفق ذاته، بينما كانت الشمسُ هزيلةً، تداري وجهها الشاحب، ليراود الظلام المدينة، فلا تستسلم له، وتبزغ الأضواء من كلِّ مكان.

في هدأة الليل أطلَّتْ من نافذة غرفتها، جهة عمود النور، وشجرة الكينا، التي تتحرك مع هبوب النسيم بينما قِطَطُها تدورُ حولَها، وتتصارعُ لتنال القربَ من قدميها النحيلتين.

(*) 2007م.

منذ ليالٍ كانت تنظر من النافذة نفسها إلى (حمدان) يتصفح مجلته، بعد أن شاركها العشاء، وأجاب عن أسئلتها، واستمع إلى أحاديثها المتداخلة، وحين أسلمتْ جسدها للفراش، أطفأ نورَ غرفتِها، وانسلَّ مصطحبًا ما تبقى من الشاي الذي أعدته مع العشاء، جلس بجوار شجرة الكينا، على ضوء نور الشارع يتصفحُ عددَ سبتمبر 1993م من مجلة العربي، وإلى جواره الراديو، يبث تحليلات إخبارية، وتفسيرات لما حدث، وتوقعات لما سيحدث.

كانت تشعر بخروجه، سرعان ما تستيقظ من نومها فتجده ما يزال في مكانه، فتحيطه بدعواتها، وتعاويذها.

تناولت واحدًا من أعداد المجلة المكدسة في رفٍّ خشبيٍّ، في إحدى زوايا الغرفة، قلَّبتْ صفحاتِها، تأملتْ كلماتِها المكتوبةَ بحروفٍ دقيقةٍ، والمرصوصة بعناية، تَمَنَّتْ أنها تستطيعُ فهمَ ما تقوله هذه الصفحات لابنها، وهو يقضي الساعات يحدِّق فيها، تعيد نظرها إلى مكان جلوسه تحت شجرة الكينا، تشعرُ برغبة في البكاء، لا يواتيها الدمع، فقد استنفدته السنوات، ولحظاتُ الوداع، التي كان آخرها منذ يومين حينما ودَّعتْ ابنها، ليبدأ حياته العملية في مدينة لم تسمع باسمها من قبل، ضمَّتْ المجلَّة إلى صدرها، وقد تملَّكَها شعورٌ بالوحدة، طالما خالطَ أيامَها ولياليها حتى أوشكتْ أن تألفَه.

برغم رحيل العجوز، وتشرد قططها، بقيت شجرة

الكينا في موضعِها، وإن بدتْ عليها آثار السنين، وبقي عمود النور يحدِّق إلى الاتجاه نفسه، بينما يجلس (حمدان) يتصفح عدد أبريل 2007م من مجلة العربي، يمر على صفحاتها سريعًا يقرأ عناوين الموضوعات، دون أن يوغلَ في قراءةِ الصفحات والسطور، فنظره يخذله أمام الحروف الصغيرة، ووقتُه لا يكاد يفي بمتطلبات وظيفته، وأسرته، قبل أن يسترخي لساعات متنقلًا بين القنوات الفضائية.

سأضحك(*)

تعابثُ صغيرتَها، التي تضحك ضحكًا متصلًا، تبدو أسنانها، وقد فتحت فمها الصغير إلى أقصى ما يمكنها، يضغطُ خداها الممتلئان على عينيها الصغيرتين، ينحسرُ الشعر عن جبهتها وهي تديرُ رأسها يمينًا وشمالًا، فتبدو البراءةُ والدلالُ معًا.

كان صوتُ قهقهتها لذيذًا، وهي تضحكُ بكلِّ ما يتسعُ له صدرُها الصغير، شاركهما في العبثِ قليلًا، توقَّفَ فجأةً.

ـ يكفي؛ كثرةُ الضَّحِكِ تتعبها.

ـ لا أحدَ يتعبُ من الضَّحِك.

ـ لا تبددي رصيدَها من الضَّحك، فلا تجدُ في المستقبلِ سبيلًا إلى الضَّحِكِ، وهي أحوجُ ما تكونُ إليه.

ـ دعكَ من هذه الفلسفةِ السوداء، وجرِّبْ أن تضحكَ معنا.

(*) 2007م.

ـ ليتني أستطيع؛ منذ سنين انتهى مخزوني من الضحك، وسأبقى محرومًا منه، بقية العمر.

ـ أنتَ لا تتفلسف، إنك تهذي.

ضحكَ من غباوتها حتى استلقى على ظهرِهِ، وهي تنظرُ إليه في ذهول، توقفتْ عن مداعبة الصغيرة، بينما استمر يضحك، ما يزالُ يضحكُ حتى يغلبَهُ النوم، فيفيقُ وهو يضحك، يغادرُ المنزلَ ضاحكًا ويرجعُ ضاحكًا، أصبح منظره الضاحك يقزِّزُها، كرهتْ أسنانه التي تراها أكثر مما ترى ملامحَ وجهِه، أخذتْ تصرخُ وتبكي كلما ضحك.

حاولتْ مشاركتَه في الضَّحِك، لم تفلح، عادتْ إلى البكاء، وتمضي الأيام وهو يضحكُ وهي تبكي، بينما الصغيرةُ ما تزالُ تبكي وتضحك.

السلَّة(*)

قبلَ نهايةِ الحصةِ الثالثةِ، دخلتْ المعلمةُ الصفَ السادس، تحملُ سلةً بلاستيكيةً؛ قالت في نبرةٍ حازمة: البنت التي عندها (كولا، أو بيبسي، أو سفن أب) تضعها هنا، ورفعت السلةَ أمامهن.

أخذتْ الطالباتُ يفتشنَ (أدراجهنَّ) حتى اللاتي يعلمنَ ألا شيء فيها، عَقَّبَتْ المعلمة؛ عندما رأتْ تأخرًا في الاعتراف، سأفتشُ جميعَ الأدراجِ، والحقائب.

ـ سامحينا اليوم يا (أبلة) ولن نحضرها ثانية.

ـ سبق وحذرتكنَّ مرارًا من المشروبات الغازية. إنها تضرُّ بالصحة.

ـ آخر مرة يا (أبلة).

لوَّحتْ لهنَّ بالسلةِ وملامحُها تشيرُ إلى عدمِ قبولِ استعطافهنَّ، أخرجتْ إحداهُن علبة من حقيبتها، وضعتها في السلة، تبعتها أخريات، التلميذات يضعن العلب في

(*) 2006م.

السلة، و هي تعد: (واحدة، اثنتان، ثلاث... ثماني، تسع علب). هل بقي شيء؟

خلاص يا (أبلة).

سأُفتش.

فتشي يا (أبلة).

غادرت الصف، تحمل السلة، جهةَ غرفةِ المعلمات، كانت السفرةُ مبسوطةً، وعليها أطباقٌ متنوِّعةٌ، والمعلمات يجلسن حولها، وقد فسحن في المكان لمعلمة الصف السادس.

الثاني من أكتوبر(*)

لم يكن الثاني من أكتوبر يعني له شيئًا كبيرًا، ولكنَّه منذُ اليوم بدأ التفكيرَ فيه بشكلٍ مختلف؛ سيأتي وأنا في قمةِ المنحنى، ثم يبدأ الهبوط. سيبدأ العد التنازلي بحساب الأيام، التصاعدي بحساب الآلام.

ذهبتْ أيامُه الماضية بين دراسةِ المحاسبة، وتدريسِ الرياضيات، دون أن يصرفَ من وقتهِ ومعرفتهِ شيئًا، لحسابِ معادلةِ الثاني من أكتوبر. ها هو اليوم يتنبَّهُ لما غفلَ عنهُ سنين، فيسجل على الغلاف الداخلي لكتابٍ بين يديه:

أنا + الثاني من أكتوبر = (س)، ثم يحلل عناصر المسألة:

أنا = (سنوات ضائعة +سبعة أطفال + ديون متراكمة + كيلوات من الوزن الزائد).

الثاني من أكتوبر= (بداية السقوط + مزيدًا من الفجائع)، وبهذا التحليل توصَّل، بخبرته الطويلة في حلِّ المعادلات الرياضية، إلى معرفة (س).

(*) 2007م.

برغمِ الأشهرِ الخمسةِ التي تفصلُه عن الثاني من أكتوبر، فقد انغمسَ في ذهولِه وانقطاعِهِ عمَّن حولَه، واتشحت نظرتُه إلى كلِّ شيء بظلالٍ من السواد، فهو يتذكرُ جمالَ الأمسِ، ويتوجَّسُ من بؤسِ الغدِ، وبينهما ضاعَ اليومُ بكلِّ تفاصيله.

خَفَتَ صوتُه فلم يعد يصرخُ كلما غضب، ولم يعد يضحك وهو يستمع إلى نوادرِ أطفالِهِ، أو أصدقائه، تثاقلتْ خطواتُه، فَقَدَ الابتهاجَ والامتعاضَ مما يدورُ حولَه، تلاشتْ رغباتُه.

انشغلَ بِعَدِّ الأيامِ التي تفصلُه عن الثاني من أكتوبر، ليجدَه يقتربُ يومًا بعد يوم.

كثيرًا ما تلحُّ زوجتُه عليه؛ تسألُه عما يشغلُه، تفترضُ بعضَ الأسباب، فيؤكدُ لها ألا علاقةَ لما توقعته بحاله، وأنه عارضٌ سيمضي بمضي الوقت، كان كلما ذَكَر الوقتَ، تذكَّر الوقتَ بين اليومِ والثاني من أكتوبر، عندما يزدادُ إلحاحُها لمعرفة ما به، توشكُ الدموعُ أن تغلبَه، فتشفقُ عليه، وتضمُّ رأسَه إلى صدرها، وتَعِدُهُ ألا تسأله ثانيةً، بما أن ذلك يزعجه إلى هذا الحدِّ.

لم تَعُدْ تسألُه عن شيء، قررتْ أن تدعَه حتى يبوحَ لها هو بما يؤلمه، أرادتْ أن تخفِّفَ عنه مسؤولياتِ البيتِ، فباعتْ خفيةً بعضَ أساورها، وتدبرتْ بثمنها مصاريفَ البيت، ومصروفَ الصغارِ اليومي في المدرسة، قالتْ

لصغارها: أبوكم متعب، حذارِ أن تزعجوه، حذارِ أن تطلبوا منه مصروفًا، أو أي شيء، أو أن تسألوه عما به، مفهوم؟ أجابوها كما عودتهم، بصوت واحد: مفهوم.

مع أن الحيرةَ والقلقَ يستحوذان عليها، لم تسأله هذه المرة عن سبب عزلته، غير أنها استأذنته أن تقترح عليه اقتراحًا.

ـ هل تسمح باقتراح بدون انفعال؟

ـ تفضلي. قالها بمضض.

ـ لِمَ لا تعرض حالتك على طبيب نفسي؟

صرخ في وجهها غاضبًا: هل أنا مجنون؟! وطردها من غرفته التي اعتزل فيها منذ أسابيع، خرجتْ وهي تلوم نفسها على إزعاجه بهذا الاقتراح، فالطبيب النفسي يعالج المجانين فقط. وزوجها معروف بعقله ورزانته.

كانت ترتِّبُ غرفته، عندما بدا لها طرف كتاب تحتَ فراشه، كان غلافُه منزوعًا، وأوراقُه مهترئةً، ومع ذلك استطاعتْ قراءةَ عنوانه الداخلي، يتوسط صفحةً صفراء، محاطًا بكتابة غير منظَّمة، ضحكت كما لم تضحك منذ شهور وهي تعيد قراءة العنوان: (انتبه فقد بلغتَ الأربعين).

الشفاء من الحب(*)

«غاليتي. منذ شهور وأنا أنشدُ الشفاء من حبك، فليسَ من الممكن أن أبقى مريضًا به إلى الأبد، ولأني لا أطيق لحظات الوداع آثرتُ أن أودعك بحروفي التي أحببتها وطربتِ لها كثيرًا وهي تتغنى بجمالك. عندما تستيقظين لن تجدي حقائبي ولا ثيابي ولا كتبي ولا دفاتر قصائدي، لن تجدي رسالة الحبِّ على مرآتك، لن تجدي شيئًا مني في مملكتك إلا الذكريات الجميلة، لا تلوميني غاليتي فقد كنتِ تعلمين كما كنتُ أعلم أن هذه اللحظة ستأتي، كنتُ أرجو أن تأتي بتوقيت ساعتكِ أنتِ، ولكن ساعتَكِ توقفتْ عند الزمن الجميل. والعمرُ لا ينتظر.

غاليتي. عندما تقرئين رسالتي هذه فلا تكرهيني، فقلبي مسكونٌ بأحبابٍ آخرين لا مأوى لهم سواه، سأحتمل أعاصير حبك، وطوفان الحنين إليك، وكارثية فراقك، لكي أقيهم مواجهة أعاصير الحياة بلا مأوى.

غاليتي. ستبقين ـ رغمًا عني ـ في قلبي وذاكرتي،

(*) 2008م.

ولكنك لن تعدمي قلبًا تأوين إليه، حين أخرج من ظلال قلبك الوثير. وداعًا، ولتبقَ الذكريات الجميلة تجمعنا».

وَضَعَ الرسالة في موضع رسالة الحب التي تعوَّدت أن تجدها بين الحين والحين، وفوقها وضع مفتاح الشقة بميداليته التي أهدتها إليه، مزينةً بكلمة حبٍ رقيقة، حمل حقائبه بهدوء، عند الباب وقف يتأمل ما يبدو له من زوايا شقتها، بدأت تغيم صورُ الأشياء في عينيه، أطرق قليلًا، جرَّ قدميه خارجًا، وبهدوء أغلق الباب خلفه.

استيقظتْ وقد ملأ الضوء شقتها، نظرت كعادتها إلى مرآتها التي تعودت أن تجد عليها رسالةً غراميةً يختمها ببيتين أو ثلاثة، تصف جمالها، أو السعادة التي يعيشها في كنفها، أو الحزن على ما مضى من عمره قبل أن يعرفها.

قفزت إلى الرسالة قرأتها، لم يعجبها أن رسالته اليوم لم تبدأ بـ (حبيبتي) قرأت الرسالة بتأنٍ وكأنها تتذوق كلماتها كلمةً كلمة، عندما فرغت منها، عادت إلى سريرها. قرأتها ثانية، ضمتها إلى صدرها، امتلأت عيناها بالدمع الهادئ، أعادت النظر إلى الرسالة من خلال الدموع، خطر لها أن تطلَّ من النافذة، رأت موضع سيارته فارغًا، جافًا، فيما الشارع مبللٌ من أثر رذاذ المطر منذ الليلة البارحة.

شعرتْ أن الجفاف يجتاحها، وأن الدموع التي سفحتها كانت آخر القطرات التي تُبقي على حياتها.

السقف(*)

يملؤون بمرحهم الغرفة، كما يملؤونها بأجسادهم الصغيرة، عندما يتبعثرون في زواياها كلما غلبهم النوم.

تبدَّدَ السكونُ عندما نهضوا من نومِهم، يواصلون عبثهم، ولكن بأجسادٍ تبدو هياكلُها العظمية، وأيديهم وأقدامهم تتحرك أيضًا عاريةً من اللحم، يضحكون فتبدو وجوههم العظمية قبيحة، بأسنان عريضة، طويلة الجذور، تتساقط مع ضحكاتهم، منتشرةً في أرجاء الغرفة، تتفلَّتْ بعضُ العظام من أجزاء متفرقة من هياكلهم، تتدلى عيونهم من تجاويفها، وتبقى متدلية على عظام وجوههم، بينما تَنِزُّ قطراتٌ كالدمع من الحدقات المتدلية، يعبث بعضهم بأطراف بعض، يُلقي كلٌّ واحدٍ منهم عظمة قد خلعها من هيكل الآخر، تسبح العظام المفصولة في فضاء الغرفة، عينٌ تنفصل عن محجرها، وتسبح بشكلٍ حلزوني، جمجمتان تتراقصان في زاوية أخرى، عظمُ يدٍ وجزءٌ من قدم يتحركان قرب الجدار، والضحكات تنبعثُ من الجماجم، تُحَرِكُ هواء الغرفة العفن.

(*) 2006م.

تبعثرت الهياكل قطعًا متفرقةً، لا يجمعها نظام، سبعةُ قلوبٍ سجينةٌ وراء أسوار عظمية، ما تزل تضخ دمًا باهت اللون، يقطرُ من أسافلِ الأضلاعِ المصبوغةِ بالدم، وهي تعلو، تقتربُ من السقف.

يتصبَّبُ العَرَقُ من جسده المرتَجِفِ، وهو يرقب أولاده المبعثرين، في أرجاء الغرفة، عجزَ عن الحركة، يعاود النظر إلى يديه وقدميه، ما تزال في مواقعها، يتلمَّس وجهه، ينضحُ العرقُ من بين أصابعه، بلَّل العرقُ ثيابه، مساماتُ جسدِهِ تتحلَّبُ عرقًا، يختلطُ بالدماءِ التي تقذفُها القلوبُ السبعةُ، والدموعُ التي تَنِزُّ من تجاويفَ فارغة.

يعلو المزيجُ برغمِ البابِ المفتوح، تطفو الأسنانُ، وقطع العظام، بينما تمطرُ القلوبُ المعلقةُ بالسقفِ مزيدًا من الدمِ الباهت.

يغمرُ الخليطُ قدميه، ساقيه، بلغ ركبتيه، حاول الوقوف عجز، كرَّر المحاولة، سقط على ظهره، أخذ يطفو، على ظهره، وجهه إلى أعلى، سلَّم نفسه لإرادة الدم والدموع والعرق، بلغ النافذة حاول أن يُغذي رئتيه بالهواء، لكنها مغلقة، جاوزها باتجاه السقف، يقترب من السقف، يقترب. يقترب.

يمد يديه جهة السقف، ليحمي وجهه من الاصطدام، شعر أنه ينغمس في المزيج، أرخى يديه، اقترب من

السقف، يلتحم بطنه المكور بالسقف، يقترب وجهه من السقف، يلتصق به، توقَّع أن أنفاسَهُ ستتوقف، ولكنه نفذ من خلاله، برغم الحديد والأسمنت، ليجدَ نَفْسَهُ في غرفة تشبه تمامًا غرفتَه، وأولاده مبعثرين في نومهم في زواياها.

مناورة(*)

نظرتْ إليه بعينين عميقتين، يقاوم، تبتسم، ترقب ردَّه، يتجاهلها، بينما قلبُهُ يلتفتُ إليها، شعرَ أن انتصارَه لن يدوم، اقتربتْ منه خطواتٍ، يغطي الشعرُ المبعثرُ حاجبيها، يقفُ تمامًا بمحاذاة رموشها الطويلة.

تصدُّ عنه، يفهمُ ما وراء صدودها، يتجاهلُ إقبالَها وصدودَها، ينشغلُ عنها بالنظرِ في الكتابِ المفتوحِ بين يديه، تقتربُ منه تطلُّ على صفحة الكتاب بين يديه، يلامسُ شعرُها وجهَهَ، وهي تنظرُ تبحثُ في صفحةِ الكتابِ عن صورةٍ تستحقُّ النظرَ، فلا تجد.

تدير وجهَهَا جهةَ وجهِهِ، أنفاسُها تلامس أنفاسه، تبتسمُ تطبعُ قبلةً على خدِّه، بينما هو يلزمُ الحياد.

تتراجعُ وقد تكورتْ شفتاها، تتهيآن للبكاء، شعرَ بانتصارٍ، وهزيمةٍ في آن، ألقى الكتابَ، احتضنها، قبَّلَها، يرفعها، يقذفها باتجاه السقف، تضحك بملء صوتها،

(*) 2007م.

يلقيها ثانية، تضحك، يستقبلها، تتشبَّثُ به ضاحكةً، يجلسها إلى جواره، تشير إلى السقف، وترجوه: «فوق يا بابا. فوق يا بابا».

رحلة شعرية(*)

مكتظة القاعة بالحاضرين، الذين جمعهم الإعلان عن أمسيَّةٍ شعرية، لشاعرٍ يتشوقون إلى الاستماع إليه، جاءت الساعةُ الثامنةُ.

بخطواتٍ واثقةٍ صعدَ أحدُ المُنَظِمين المنبر، أدارَ نظرَهُ في القَّاعة، نظرةٌ أخرى من فوق إطار نظارته، شعرتُ كأنما يبحثُ عن أحدٍ بيننا، قرَّب اللاقط: تَنَحْنَحَ. تَنَحْنَحَ مرة أخرى بإيقاعٍ مُختلفٍ. «مساءُ الخير». نزع نظارته، وضعها على المنبر:

ـ «الحقيقة أنَّنا نشعرُ بالحرج حين نقول لكم: إن رحلة شاعرنا الكبير، قد تأخرت، ولن يصل إلى المطار قبل، ساعتين من الآن، ولكن لا تَبْتَئِسوا فقد رأى الأخوةُ هنا أن أنوب عنه في تقديم هذه الأمسيَّة، وسآخذكم في رحلة شعرية، أرجو أن تكون مُمْتعة» وضع نظارته على أرنبة أنفه، نزعها، رفعها بكلتا يديه باتجاه الضوء، حركها يمينًا، شمالًا، ظَنَنْتُهُ يريدُ أن يقول: «اضغط على اللسان المعدني

(*) 2007م.

حتى تسمع صوتَ المزلاج». قدّم لرحلته الشعرية بِمُقَدِّمة طويلة: لم يكن من ضمنها دُعاء السفر، شعرتُ وهو يبدأُ قصيدته الأولى أنَّه أقلَعَ بنا بلا أجنحة، كانت المطبات النحوية ترجُّ أسماعنا، كُلُّ الأسماء التي أقلعتْ معنا لم تمتنعْ عن الصرف، مع أن أكثرها أعجمية، تلَمَّستُ خاصرتي فلم أجد الحزَام، توشك القصيدةُ الأولى على نهايتها، شعرت بالضيق، فككتُ زرًا، يكادُ يخنُقني، رفعت عينيَّ إلى السقف، منتظرًا أن يَتَدلَّى قناع الأُكسجين، شعرتُ أنهم يخدعوننا في جميع الرحلات، حينما يقولون: «سيسقط قناع الأكسجين عند الحاجة إليه تلقائيًا» ختمَ قصيدته الأولى بضحكة رقيقة، واندفع يُقَدِّم لقصيدته الثانية، مدَّدَ الحُروف حتى تَشَقَّقت أطرافها، تَمَسَّكتُ بمقبض الكرسي. قبل أن يبدأ بقراءة القصيدة الثانية أخذَ رشفةً من الماء، بدأت القصيدة، بيتٌ. بيتان. ثلاثة. ولم تسقطْ أقنعة الأكسجين، انتهت الصفحة الأولى، ولم تُضأ الممرات باللون الأزرق، لم يكن أمامنا إلا انتظار ما سيحدُث.

انتهت القصيدة الثانية، وشعرتُ بالأكسجين يَتَسَرَّبُ إلى رئتيَّ. أخذت نفسًا عميقًا، بينما أخذ رشفةَ ماء قبلَ أن يبدأ القصيدة الثالثة، التي اقتضت أن يُقَدِّم لها بطرائفَ حدثتْ له في بدايات نبوغِهِ الشِّعري، أخذَ الحاضرون يُفَتِشون عن أطواق النجاة تحت المقاعد، لم يعثروا عليها، عيونهم تتجه نحو السقف بانتظار أقنعة الأوكسجين، مددتُ يديَّ إلى كتبي وأوراقي التي أمامي لأحملها وألقي بنفسي

خارجَ القاعة، تذكَّرتُ جملةَ: «أتركْ أمتعتك الشخصية» تركت كتبي وأوراقي، تلفَّتُّ، لم تكن الممرات مضاءةً باللون الأزرق، بحثتُ عن مخارجِ الطوارئ فلم أعثر عليها.

أخذت القاعةُ تميلُ جهة الشاعر، انتابني شعور بالأمل، سرعان ما تَبَدَّدَ عندما تذكرتُ استحالة الهبوط بدون عَجَلات، كنتُ أعيش صراعًا بين اليأس والأمل عندما شرعَ يُلقي قصيدته الرابعة قررتُ أن أخالف كل تعليمات الطوارئ، لم أتركْ أمتعتي ولا خلعتُ حذائي، وألقيتُ بنفسي عبر المخرج الوحيد الذي يتزاحم عليه الخارجون، الذين يشتكون حساسيةً في أذواقهم الشعرية.

بائع الخضار(*)

لا أتفاءل عندما تصلني رسالة عبر الهاتف الجوال، قرب نهاية الدوام، لم يخب حدسي، وكان عليَّ أن أُعَرِّجَ في طريقي إلى المنزل على محلِّ الخضار، لإحضار كيلوين من البرتقال، وسأضطر إلى الاستماع إلى شكوى صديقي بائع الخضار.

كان يتصفَّح الجريدةَ، ويشربُ الشاي، سلَّمتُ ثم بدأتُ أنتقي حبات البرتقال، على طريقة تعودها زبائنه، إذ يختارون ويحددون الوزن الذي يريدون، وينحصر دوره في تلقي الثمن، والثرثرة مع بعض المشترين دون بعض. قدَّرتُ أنَّه يحتفظُ بكثيرٍ من الأخبار السيئة، حينما سألني، عن آخر الأخبار، وقبل أن أجيب، بدأ بسرد ما قرأ اليوم في الصحف التي بين يديه من أخبار سيئة، ومع هذا فهو يذمُّ الجرائد التي لا تقول الحقيقة، فلو كانت تحترم المصداقية لكشفت الفساد بكل أشكاله، ولَنَعَت الأمانة التي ماتت منذُ سنين.

ـ الدنيا بخير، أيها المتشائم.

(*) 2007م.

ـ أنتم تضحكون على أنفسكم، وتخدعون الأجيال، عندما ترددون: «كل شيء تمام»، قطعَ كلامَهُ، صوتُ منبِّهٍ دَوَّى في المحل، لسيارة تقفُ أمامَ الباب، فلعن صاحبها، ولعن أمريكا التي تتبختر، حتى بمنبه السيارات الضخم، قلتُ:

ـ الذنبُ ذنبُ الذي يستخدمُ المنبه بهذا الشكل.

ـ هؤلاء كَالأنْعَامِ، بل هم أضلّ.

ـ استغفر الله يا رجل، إنهم بشر كرَّمهم الله.

ـ ما يكفينا أن الحال واقف «والخضرة ما تجيب همها»، حتى يأتي هذا البغل فيغلق المدخل بسيارته.

ـ لمَ لا توَسِّع المحل، وتهتم بنظافته، وترتيبه، وتجدِّد بضاعتك بشكل يومي، بدلًا من شكوى الحال؟

ـ يا أخي، كلكم تقولون ذلك، ما لكم ولنظافة المحل، خذوا ما تريدون، وكلوا في بيوتكم النظيفة.

حاولت إقناعه بأهمية المظهر، وأنه من فنون التجارة التي لا تخفى عليه، فغضب مني، وهددني؛ بأن يستبدل بالخضار والفاكهة برسيمًا، لأناس لا يعرفون قيمة الخضار والفاكهة، ثم استدرك: ولكن من يقنعهم بأن البرسيم يُناسبهم؟

ـ هذه مهمة البائع. قلتها وأنا أضع ثمن البرتقال أمامه، فأصرَّ أن يكون هدية منه للأولاد، واشترط أن أكرر

زيارته ليُفضفضَ بعضَ ما يجدُ في نفسه، شكرتُهُ، ودفعت الثمنَ، على أنّي سآخذُ البرسيم مجانًا في المرة القادمة. قلتها ضاحكًا. فأبدى أسفَهُ، واعتذر إن كان ضايقني بكلامه. أكدت له أني لم أتضايق من كلامه، فقد تعودته، فمنذ سنوات وأنا أستمع إلى ضجره، ولم أنقطع عن التردد على محله الكئيب، برغم عدم اهتمامه بترتيب محتوياته، وانشغاله عن زبائنه، بقراءة الجرائد، أو مشاهدة تلفزيونه ذي اللونين، المدسوس بين كراتين الفاكهة. وبرغم شكواه الدائمة من الناس والزمان، وتحميله مستمعيه هموم العالم بأسره، وما يجري فيه من حروب ومشكلات، وشكواه باسم الطبقة الكادحة، برغم أنه يمضي وقته، وقد غرسَ رأسه بين صفحات الجرائد، أو رفع رجليه على الطاولة أمامه يشاهد التلفزيون، وبين هذا وذاك يبعثِرُ اللعنات والشتائم على من لا يعجبه من المارة.

العائد(*)

امتد غيابُه، تجاهلَ اتصالاتي، لم يرد على رسائلي؛ باركتُ له بهلالِ الصوم، لم يُجبْ، لعلَّهُ لم يرَ الهلال، دعوتُ له عصرَ الجمعة، لم يُبادلني الدُّعاء، قد يكون اليوم الخميس، وأنا كعادتي أخلطُ بين الأيام، بعثتُ له أطيبَ التهاني بعيدِ الفطر، لم يرد، لا بُدَّ أنه الانغماسُ في العبادة، تداركًا لما بقي من ساعاتِ رمضان. طرقتُ بابَه يومَ العيد، لم أجده، فقد سافرَ إلى حيثُ لا يعلم أبناؤه.

مضت الشهورُ لا نراهُ، لا يتصل، لا يرد على رسائلنا.

فاجأني اتصاله الرقيق، أعاد إلى ذاكرتي سنوات صحبتنا التي لا تُنسى، كانت فرصةً لأطمئنَّ على صحتِه وأسرتِهِ. لم أُعاتبْهُ على هجرانِه، لم أسألْهُ عن سرِّ انقطاعِه. سألني عن بقية أصدقائنا، حدَّثْتُه عنهم واحدًا واحدًا، سألني: «هل غرق أحد منكم في سوق الأسهم؟» طمأنتُه، بأننا ـ كما يعرف ـ لا نملكُ ما نخسره.

ـ «أما أنا فقد خسرتُ في سوق الأسهم حتى أصدقائي». قالها مودعًا وواعدًا بزيارة قريبة.

(*) 2007م.

المريض رقم (7)(*)

حاولَ قراءة نتائج التحاليل التي استلمها توًا من المختبر، لم يستطِع فكَّ رموزِها، تعلَّق نظرُهُ باللوحة المعلقة على باب العيادة: (انتظر يوجد مريض بالداخل)، جلسَ في المقعد الأقرب إلى باب العيادة، نقَّلَ نظره في أرجاء الغرفة، حضرتْ قصصُ المرضى الذين لقيهم أو سمع بهم في حياته، كلُّ المرضى بدأتْ حكاياتهم على أبواب العيادات، وانتهت بهم في المقبرة، أسعفته ذاكرته، بكل مواجعِ المتألمين، وكلِّ المفاجآت التي لم يكونوا ينتظرونها، أبطالُ الروايات التي قرأها، والأفلام والمسلسلات التي شاهدها.

شَعَرَ أن صالة الانتظار تتسع، لم يعد بوسعه رؤية المنتظرين الذين كانوا بجواره، يتسلل البرد من أطرافه إلى سائرِ جسدِه، قشعريرةٌ تهزُّ جسدَه، يرتجف، تمر الدقائقُ ثقيلةً، لم يستطع التشاغلَ عنها، عيناه تتأرجحان مع بندول الساعة الجدارية، تنادي الممرضة: رقم (4) يراوده الأمل

(*) 2007م.

ألا تطول إقامة هذا المريض في العيادة؛ «رقمي (7) هذا يعني مزيدًا من الانتظار»، تحرك قلبه مع مقبض الباب، كانت الممرضة تأتي وتذهب، لم يخرج المريض بعد، فكر أن يجول في الممرات الفسيحة، ولكن قدميه عاجزتان عن الحركة، بقي في مكانه، وعادت عيناه تتأرجحان، مقبض الباب يتحرك، يفزُّ قلبه، فكر أن يستأذن الحاضرين ليدخلَ أولًا، تردد قليلًا، نادت الممرضة: رقم (5)، دخل أحد المنتظرين، ومؤشر الثواني يطرق رأسه، وبندول الساعة يؤرجحُ عينيه، يمضي الوقت ثقيلًا، تسعفه ذاكرته بكثيرٍ من الذين ذهبوا ضحية أخطاء الأطباء، طمأن نفسه: بأن هذا طبيب مشهور، ليس كسائر الأطباء، سيكشف له الحقيقة؛ «آه من الحقيقة، كم هي مخيفة شديدة المرارة في كثير من الأحيان».

يتحرك مقبض الباب، يتوجَّس، تُلقي الممرضة نظرةً باحثةً بين المراجعين، ثم تعود إلى الداخل، يشعر بضيق في صدره، يملأ رئتيه بما أمكنه من الهواء، ثم يجتثه من رئتيه ويلقي به بين المنتظرين، يتصبَّبُ جسدُهُ عرقًا، تخرجُ الممرضة من جديد، يمتقع وجهه. تنادي: رقم (6).

ينهض أحد المنتظرين، متثاقلًا، يدخل العيادة، يمرُّ الزمن ثقيلًا، يتحرك مقبض الباب، يخرج المريض، ينفثُ آهةً عميقةً وهو يغادر العيادة.

يضطرب في مكانه، يحدِّق إلى الورقة الصغيرة التي تحمل الرقم (7)، تُطلُّ الممرضة تنادي: رقم (7)، يفرك الورقة بين يديه، بينما هي تتفرَّس في وجوه المنتظرين، ترفع صوتها: رقم (7).. (7).. (7).. لا أحد يجيب.

السمكة الحائرة(*)

الماء يقتربُ من حافة الحوض الزجاجي، الحصيات البلورية تملأ أرضيته، والسمكات الرشيقة ذات الألوان المنسجمة، تتخلل الشجيرات الصغيرة، والممرات، والدهاليز، التي زُينت بها أرضية الحوض.

تعلو وتهبط، تلتصق بعضها ببعض، تتصارع على الفتات الذي يُلقى إليها بين الحين والحين، في زاوية للحوض تنزوي سمكةٌ بعيدةً عما يدور في الحوض، وقد التصق وجهها بجدار الحوض الزجاجي، ترى نفسها أكبر من هذه المساحة التي تعيش فيها، تنظر من الحاجز الزجاجي، تشعر بقلق إزاء ارتهانها لهذه المساحة الصغيرة، والقوتِ الذي يأتيها حسب فراغ المحيطين بها، الذين يعتنون بها فقط ليستمتعوا بمنظرها، ويخلبوا بها ألباب زوارهم، تساءلت عن مصيرها، فيما لو توقفت مصفاة الهواء الكهربائية، أو تبخر ماء الحوض، أو هوى الحوض من مشجبه.

(*) 2008م.

برغم توافر الغذاء لديها كانت تشعر بالألم نفسه الذي تتوقعه، لو نسوا أن يلقوا إليها بالفتات بضعة أيام، ماذا تستطيع أن تفعل بالحصى البلوري، والشجيرات البلاستيكية؟!

شعرتْ أن حدود الحوض تضيق عليها، تكاد تخنقها، برغم أن السمكات الأخرى تمرح بحرية في كلِّ زواياه، حاولت أن تتذكر كم يبعد النهر عن مكانها، هل تستطيع أن تقاوم الموت حتى تلقي بنفسها في النهر، الوصول إلى النهر يشبه المستحيل، فكرت أن تقفز من الحوض وتجرب، ولكنها ترددت عندما فكرت في ثمن هذه التجربة فيما لو فشلت.

تقترب من سطح الماء، ما تلبث أن تعود إلى مكانها، ملتصقة بالجدار الزجاجي الذي يفصلها عن العالم الخارجي، فكرت كثيرًا في مثيلاتها اللاتي يتمتَّعن بمساحات هائلة من الحياة في البحار، والمحيطات، ثم قنعت بنهر صغير، تعيش فيه، تسعى إلى قُوتِها بنفسها، لا تنتظره ليأتي من فوقها، وقد لا يأتي.

فكرتْ أنها قد تكون غذاء لسمكة أخرى أكبر منها لو لم تكن في حدود هذه الزجاجة، شعرت بنوع من الارتياح إزاء هذه الفكرة، ولكنها عادت وقالت: في البحار والمحيطات عددٌ لا يُحصى من السمكات الأصغر مني، واستطاعت العيش بسلام. سرعان ما بددتْ هذه الفكرةَ حين

تذكرتْ أن تلك السمكاتِ عاشتْ منذ مطلعِ حياتها في تلك البيئة، فلا غرابة أن تستطيع البقاء، أَما هي فغريبة، وستكون طريدةً لبقية السمكات.

التصقت بجدار الحوض، تحدِّق في السمكات من حولها، فُتَاتُ الطعامِ يُلْقى، ليشكل طبقة فوق سطح الماء، قبل أن يبلغ القاع، ألقت بنفسها في أتون معركة البقاء، لتظفر بشيء من الفتات.

ابتلاع(*)

خمسة أيام قاسية قضاها في المستشفى، انتقل من الطوارئ إلى غرفة العمليات، فالعناية المركزة، وأخيرًا في غرفة التنويم، لم تكن تلك المعاناةُ نتيجةً معقولةً، لمجرد ابتلاعه عملة معدنية قديمة قيمتها عشر هللات.

زاره جميع زملائه في العمل، بمن فيهم مدير المؤسسة، الذي تحدث مع الطبيب، وشكره على إنقاذ حياة أفضل الموظفين لديه.

كانت الدهشةُ تدور برأسه وهو يرى المدير يخرج من المستشفى بصحة جيدة، دونَ الحاجة إلى عملية مشابهة، تبددت دهشته عندما عرف السر؛ فالعملة الورقية سهلة الهضم بخلاف المعدنية.

(*) 2008م.